تهذيب
الثَّبات
عِندَ المَمات

للحافظ أبي الفرج
عبد الرحمن بن عليّ بن الجوزي
(ت ٥٩٧هـ)

تهذيب وتعليق
الدكتور عبد التوّاب بن محمد
الشريف الهاشمي



دار أنوار العلوم
للطباعة والنشر

تَهذِيب

الثَّبات عِندَ المَمات

للحافظ أبي الفرج عبد الرحمن بن عليّ بن الجوزي (ت ٥٩٧هـ)

تهذيب وتعليق

الدكتور عبد التوّاب بن محمد الشريف الهاشمي



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدّمة المختصر

الحمد لله الذي جعَل الموتَ موعِظةً لِمَن شاءَ مِن الغافلِين، وعبرةً لِمَن أرادَ مِن المعتَبِرين، وبابًا يفضي بأهل الإيمان إلى دار المتّقين، وصلَّى الله على سيّدنا محمّدٍ خاتَم النّبيّين، القائِل: «**أَكْثِرُوا ذِكْرَ هاذِمِ اللَّذّات**»[1]، وعلى ءاله وصَحبِه وسلَّم تسليمًا كثيرًا إلى يومِ الدِّين.

أمّا بعد؛ فهذا مُختصَرُ كتابٍ لطيفِ الوضع، عظيمِ النّفع، جَمَع فيه مصنِّفه الحافظ ابنُ الجوزيّ رحمه الله مِن مواعظ الموت، وأحكام المصائب، وأدوية القلوب عند نُزول البلاء، ما يُوقِظ الغافِل، ويُثبِّت العاقل، ويَكشِف للنّاظر عن حقيقة الدّنيا وسُرعة انقضائها. ولم يَقتصِر فيه على حكاية أحوال المحتضَرين، بل مَهَّد لذلك بأصولٍ تُبنَى عليها المعاني، وتَستقِيم بها المقاصِد؛ فبدأ بِبَيان فَضْل العَقل السَّليم والنَّقل القَوِيم في الدِّين، ثمّ أتْبَع ذلك بذِكر ما اتّفَقا عليه مِن كون الدّنيا دارَ مِحنة وابتلاء، لا دارَ صَفْو وبقاء.

ثم انتقل من الأصول إلى الفروع، ومِن التّقرير إلى التّطبيق؛ فذكَر المُصاب بفَقْد مَحبُوبه، وما يُعالِجُ به قَلبَه مِن العِلم بِسَبْق القدَر، والنّظر في أحوال المُبتلَين، وطلَب الأجر بالصَّبر، والتّرقّي مِن مقام الصَّبر إلى كَمالِ الرّضا. ثمّ أتْبَع ذلك بذِكر

---

(١) أخرجه الترمذي في «الجامع»، كتاب الزهد، باب ما جاء في ذكر الموت، (٢٣٠٧). والنسائي في «السنن»، كتاب الجنائز، باب كثرة ذكر الموت، (١٨٢٤). وابن ماجه في «السنن»، كتاب الزهد، باب ذكر الموت والاستعداد له، (٤٢٥٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ما يختصّ بذات الإنسان مِن المرض وشِدّة النَّزْع ومُفارقة المألوفات، وما ينبغي للمؤمن أن يتأهَّب به في صحّته مِن التّوبة والوصيّة وقضاء الحقوق والخروج مِن المَظالم، قبل أن يَحُول المرَضُ بينه وبين ما يُريد.

ومِن مَحاسن الكتاب إحكامُ تَرتيبه، وائتلافُ أبوابه، واتّصال ءاخِره بأوّله؛ إذ جعَل الثّباتَ عند الممات ثمَرةً لِمَا تَقدَّم مِن صحّة الاعتقاد، ومَعرفةِ حقيقة الدّنيا، والصّبرِ على البلاء، وحُسنِ الظّنّ بالله تعالى. فليس الثَّباتُ عنده كلمةً تُقال عند حضور الأجَل، وإنّما هو خاتمةُ حالٍ تَقدَّمت أسبابُها، ونتيجةُ عمَلٍ سَبَق أوانُه، فمَن حَفِظَ حُدودَ الدِّين في رَخائِه كان أرجَى للحِفظ عند شِدَّته، وكَم أهلكَتْ ذُنوبٌ بُشؤْمِها مُحتضَرًا فانقلَبَ في الأشقياءِ عِياذًا باللهِ.

وقد جمَع المصنِّف رحمه الله في كتابه بينَ الآيات المُحكَمة، والأحاديث المأثُورة، وأقوالِ الصّحابة والتّابعين، وحكاياتِ العلماء والعُبّاد، وما جَرَى على ألسِنة الحكَماء والشُّعَراء. وهو مع ذلك حَسَنُ التّنبيه على دَقائِق أحوالِ النُّفوس، مُعْلِمٌ بِمَداخل الجَزَع، وأسبابِ الاعتراض، ومَكايِد الشّيطان عند نُزول البلاء؛ يُفَرِّق بين نُفور الطَّبعِ مِن الألَم وبينَ رِضا القَلبِ بالقضاء، وبين الحُزن الذي تَقتَضِيه الجِبِلّةُ وبينَ الجزَعِ الّذي يُفسِدُ التَّسليم.

ومِن خَصائِصه حُسن التّقسيم والتّفرِيع؛ كذِكرِه عِلاجَ فَقْد المحبوب في ثمانيةِ أشياءَ، وأدويةَ المَريض في سَبعةَ عشرَ وَجهًا، وتَقسِيمِه دَوافِعَ الثَّبات عند الموت. وبذلك تَجتمعُ للقارئ أصولُ المعنَى وفُروعُه، ويَسهُل عليه ضَبْطُها وحِفظُها.

ويَزِيدُ ذلك بيانًا ما أورَدَه مِن الأمثال السّائِرة، والأشعار المؤثِّرة، والأخبارِ الّتي تُخرِجُ المعنَى مِن حَدّ التّجريد إلى حيّز المُشاهَدة.

وختَم كتابَه بأخبار مَن ثَبَتُوا عند الممات، مِن الأنبياء عليهم السلامُ والصّحابة رضي الله عنهم والتّابعين رحمهم الله ومَن بَعدَهم، فجاءت تلك الأخبار شواهدَ لِمَا قَرَّره، وصُوَرًا عمليّةً لِمَا دعا إليه.

ولمّا كان هذا الكتاب قد جمَع مِن لطائِف المواعظ، وعُيون الآثار، ودقائِق أحوال النُّفوس ما يَجِلّ نَفعُه، وتَطُول على أكثر العامّة مطالعَتُه؛ رأينا أن نُقرِّب بَعِيدَه، ونَجمَع مُتفرِّقه، ونَستخلِصَ مِن مُطوَّلِه ما يدلّ عليه. ولم نَقصِد إلى تغيير نَظمِه، ولا الاستدراك على مُصنِّفه، بل سلَكْنا فيه سبيلَ الحذف والانتقاء، مع المحافظة على مَقاصِده وعباراتِه ما أمكَن؛ إذ المختصَر الحسَنُ ما قَلَّ لَفظُه ولم يَختَلّ معناه، وقَرُب مأخَذُه ولم تَنطمِس مَعالِمُ أصلِه، وكان عَمَلُنا فيه جاريًا على الأصول المُبيَّنة في الفصل التالي.

منهج التهذيب والاختصار

١. **حفظ بِنْية الكتاب**: أبقَينا أبوابه الخمسة على ترتيب المصنِّف، ولم نُقدِّم منها بابًا أو نؤخِّره؛ لِمَا بَين أجزائها من اتّصال، ولأنّ المتأخِّر منها ثمَرةٌ لِما تقَرَّر في المتقدِّم.

٢. **اعتماد الحذف دُون الاستبدال**: قصَدْنا إلى إسقاط الزّائد، لا إلى إنشاءِ كلامٍ مكان كلام المصنِّف؛ فأبقَينا عبارته ما أمكَن، ولم نَعدِل عنها إلى عبارة أخرى إلّا حيث اقتضَى وَصلُ الكلام أو كشفُ المراد ذلك.

٣. **إبقاء أصول المعاني**: حافَظْنا على المقاصد التي عليها مَدار الكتاب؛ مِن إثبات مَنزلة العقل والنّقل، وبيانِ حقيقة الدّنيا، وأحكام الصّبر والرّضا، والاستِعداد للموت، وحُسن الظّنّ بالله، والخوف مِن سوء الخاتمة.

٤. **حذف عامّة الأسانيد**: حذَفْنا سلاسلَ الرُّواة وما تَكرَّر فيها مِن صِيَغ الإخبار والتّحديث، وأبقَيْنا مُتون الأحاديث والآثار المختارة، مع نِسبة القول إلى قائله حيث تدعُو الحاجة إلى ذلك.

٥. **اختيار عيون الأدلّة**: أثبتنا مِن الآيات والأحاديث والآثار ما كان أظهَرَ اتّصالًا بالباب، وأجمَعَ لِمَعناه، وأقوى في الدّلالة على مَقصُوده، ولم نَقصِد إلى استيعاب كلّ ما أوردَه المصنِّف مِن الشّواهد.

٦. **الاكتفاء عن المكرَّر بنَظِيره**: إذا تعدّدَت الأخبار أو الأشعار في تَقرير معنًى واحد، أبقَيْنا أوضَحَها دلالةً، وأشدَّها أثرًا، وحذَفْنا ما قارَبَه؛ إذ المقصود تحصيلُ المعنى، لا استِيفاءُ طُرق الاستشهاد به.

٧. **اختصار الأخبار المطوَّلة**: أثبَتْنا مِن كُلّ خبَرٍ موضعَ العِبرة، وما تَتبَيَّن به حال صاحبِه عند البلاء أو الموت، وأسقَطْنا ما خرَج عن محلّ الاستشهاد مِن التّفصيلات الّتي لا يَختَلّ بِحَذفِها سِياق القصّة.

٨. **انتقاء النّماذج**: لم نَستوعِب جميعَ مَن ذكَرَهم المصنِّف، بل اخترْنا مِن أخبار مَن قَبلَنا مِن الصّحابة والتّابعِين، والعبّاد الصالحين، والعلَماء العاملين، ما تَتنوَّع به صُوَر الثَّبات وتتَّضِح به مَقاصد الباب.

٩. **المحافظة على التّقسيمات**: أبقَيْنا التَّعْدادات التي ضبَط بها المصنِّف مسائلَ الكتاب؛ لِمَا فيها مِن جَمْع المتفرِّق، وتَقييد المعاني، وتَيسِير الفَهم والحفظ.

١٠. **وضع عناوين كاشِفة**: زِدْنا عناوينَ بين مَعقُوفين تَجمَع الفصول المتقارِبة، وتدُلّ على مَضمُون ما تَحتَها، لِيَهتديَ القارئ إلى مواضِع المسائل.

١١. **تقليل التّصرُّف في اللّفظ**: لم نُغيِّر اصطلاح المصنِّف ولا طريقتَه في البيان، واقتصَرْنا على تصحيح التّصحيف الظّاهر في النُّسَخ المتداوَلة، وتنظيم الفِقَر، وما لا يُجاوِزُ خِدمةَ النّصّ إلى تبديله.

١٢. **شرح الغريب**: ألحَقْنا بالحواشي بيان ما غَمُضَ مِن الألفاظ، وما خَفِيَ مِن الإشارات والأعلام والمواضع، وجعَلْنا الشّرح خارجَ المتن، حتى تبقى عبارةُ المصنِّف محفوظةً متميِّزة.

١٣. **بيان منزلة المختصَر**: لم نَقصِد بهذا العمل الاستغناءَ عن الأصل، ولا إسقاطَ الحاجةِ إليه؛ وإنّما قصَدْنا تقريبَ مَقاصِده، وجَمْع عيون مواعِظه، وتيسيرَ قِراءته وحِفظَه. فمن أراد استِقصاءَ الأسانيد والرّوايات والشّواهد، فعلَيه بالرُّجوع إلى الكتاب على تَمامِه.

ترجمة العلّامة الحافظ ابن الجوزيّ

اسمه ونسبه

هو الإمام العلّامة، الحافظ المفسِّر، الفقيه الواعظ، المؤرِّخ الأديب، جمال الدين أبو الفَرَج عبد الرحمن بن أبي الحسن علي بن محمد بن علي بن عبيد الله بن عبد الله بن حُمادى بن أحمد بن محمد بن جعفر الجَوْزي القرَشيّ التَّيمِيّ البَكرِيّ البغداديّ الحنبليّ المعروف بابن الجوزي. واختلفوا في «الجَوزِي» فقيل: نُسب إلى «فَرْضة الجوز»، وقيل: إلى «مَشرعة الجوز»، وهي من محالّ بغداد بالجانب الغربي، وقيل غير ذلك.

مولده ونشأته

وُلد ابن الجوزي ببغداد نحو سنة ثمان وخمسمائة، وقيل: سنة تسع، وقيل: سنة عشر وخمسمائة. ولم يكن هو نفسه يجزم بسنة مولده؛ فقد نُقل عنه أنّ والده توفّي سنة أربع عشرة وخمسمائة، وأنّ والدته أخبرته بأنّ عمره يومئذ كان نحو ثلاث سنين، وهو ما يفسّر اختلاف المؤرّخين في تعيين سنة ولادته.

نشأ في أسرةٍ ميسورة الحال تعمل في تجارة النحاس، وكان بعضهم يكتب اسمه في طبقات السماع: «عبد الرحمن بن علي الصفّار»؛ نسبةً إلى عمل أسرته بالصُّفر أي النحاس. مات أبوه وهو صغير، فتولّت عمّتُه رعايته، وأحسنت توجيهه إلى العلم، فحملته إلى مجالس العلماء والمحدّثين، وربطته منذ حداثته بالحافظ أبي الفضل محمد بن ناصر السلامي، فسمع الحديث، وتفتّحت نفسه لطلب العلم.

طلَبُه للعلم وشيوخُه

بدأ ابن الجوزي سماع الحديث في سِنّ مُبكِّرة، وكان أوّل سماعه سنة ست عشرة وخمسمائة تقريبًا. وقد أدرك ببغداد عددًا كبيرًا من العلماء، وسمع من نيّف وثمانين شيخًا، وصنّف فيهم مشيخةً في جزأين. ولم يرحل في طلب الحديث إلى البلاد البعيدة؛ لأنّ بغداد يومئذ كانت حاضرة العلم، ومجتمع كبار المحدّثين والفقهاء والقرّاء والأدباء، فوجد فيها من الشيوخ والكتب والأسانيد ما أغناه عن كثرة الرحلة.

ومن أشهر شيوخه: أبو الفضل محمد السلامي، وقد انتفع به في الحديث انتفاعًا ظاهرًا؛ وأبو القاسم بن الحُصين؛ والحافظ عبد الوهاب الأنماطي؛ وأبو الوقت السِّجزي؛ وأبو منصور الجواليقي، الذي أخذ عنه الأدب واللغة؛ وسِبط الخيّاط، الذي قرأ عليه القرءان وعلومه، وغيرهم من علماء بغداد والقادمين إليها.

مكانته العلمية

جمع ابن الجوزي علومًا متعدّدة قلّ أنْ تجتمع لعالِم واحد على ذلك النحو؛ فكان من أعيان المفسّرين، ومن حفّاظ الحديث، ومن المتوسّعين في التاريخ والسِّيَر، وله مشاركة قويّة في الفقه والخلاف والأصول واللغة والطبّ والأدب. غير أنّ الفنّ الذي امتاز فيه وسبق إليه غيره هو الوعظ؛ حتى عُدّ حامل لوائه في عصره.

ومع هذه المنزلة، لم يَسلم نتاجه الكبير من الملاحظات؛ فقد نبَّه بعض الأئمة إلى وقوع أوهامٍ في طائفة من مصنّفاته، ولا سيّما ما ألّفه على سبيل الجمع السريع من كتب كثيرة المصادر. ورأى بعض المؤرِّخين أنّ كثرة تصانيفه وسُرعته في إتمامها حالتَا أحيانًا دون المراجعة التامّة والتحرير الأخير. وهذا النقد يقضي على الباحث التمييز بين كتبه المحرّرة وكتبه الجامعة، ومقابلة ما ينفرد بنقله بالأصول التي استقى منها.

تلاميذه والرواة عنه

انتفع بابن الجوزي خَلْق كثير، وروى عنه جماعة من كبار العلماء، ومن أشهر مَن حدّث عنه: الموفّق ابن قدامة، وابن الدُّبيثي، وابن النجّار، والضياء المقدسي، وابن خليل، والنجيب الحرّاني، وغيرهم.

وروى عنه أيضًا ولداه: محيي الدين يوسف، الذي تولّى التدريس والحِسبة وصار أستاذ دار الخلافة، وأبو القاسم عليّ الناسخ. ومِن أشهر مَن انتسب إليه سِبطُه شمس الدين أبو المظفّر يوسف بن قِزُغلي، المعروف بسِبط ابن الجوزي، صاحب كتاب «مِرءاة الزمان».

عقيدَته

لقد كان الإمام الحافظ ابن الجوزي رحمه الله على ما عليه علماء المسلمين من نَشرِ عقيدة الإسلام التي تنُصُّ على تنزيهِ الله تعالى عن مشابهة المخلوقات، ونفيِ ما لا يليق بجلاله من التحيّز والحركة والانتقال والمماسّة، وعدمِ حمل النصوص المتشابهة على المعاني الحسّيّة المعهودة في المخلوقين. وقد اعتنى ببيان ذلك في عددٍ كبيرٍ مِن كُتبِه، وجعل وجوبَ نفيِ ما يستحيل على الله تعالى أصلًا يُرجَع إليه في فهم ما يُوهِم التشبهَ مِن المُتشابِهات النَّصِّيّة؛ فبيّن أنّ فهم هذه النُّصوص يقتضي مراعاةَ ما يجب لله تعالى، وإسقاطَ ما تدُلّ عليه ظواهِرُها في حقّ المخلوقين من خصائص الحدوث؛ فلا تُثبَت له الأعضاء والجوارح، ولا تُفسَّر أوصافُه عزّ وجلّ بما يُفضِي إلى مشابهة الخَلق[1].

(١) يُنظر: ابن الجوزي، دفع شبه التشبيه بأكُفّ التنزيه، ص ١٠٠.

ومِن صَرِيح عباراته في نفي خصائص الأجسام عن اللهِ قوله: «ولا يجوز أن يكون مَحمُولًا، ولا يُوصَف بملاصَقةٍ ومَسّ، ولا أنه يَنتقِل». فليس الاستواء عنده استقرارَ جسمٍ على جسم، ولا النزول انتقالًا من مكان إلى مكان، وكذلك مذهب المُسلمِين؛ لأنّ الإيمان بالنصوص مُقترِنٌ بتنزيه الله عمّا يستحيل عليه، ولا يُفهم شيءٌ منها بمَعزِل عن هذا الأصل(١).

وكذلك قرَّر أنّ الخالق لا تُحيط به الصُّوَر المتخيَّلة، فقال: «إنْ أرَدتَ بالفهم التخيُّل والتصوُّر فإنّ الخالق لا يدخل تحت ذلك»، ثم بيّن أنّ الوهم يتبع ما أَلِفَه الحِسّ مِن المُبصَرات، فلا يصحّ الرُّجوع إليه في معرفة الخالق. وعلَيه فقد رَدَّ توَهُّم التحيُّز والحركة والانتقال في حقّ الله، وأثبت أنّ معرفة وجودِ الله بالدليل لا تستلزم تصوّره على هيئة المخلوقات(٢).

وقد ظهَر هذا المسلَك في تفسيرِه المشهور «زاد المسير» فقال عند قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾: «عن أحمد أنّه قال: المراد به قُدرَتُه وأمرُه»(٣).

مصنَّفاته

يُعدّ ابن الجوزي مِن أكثر علماء الإسلام تصنيفًا، وقد وُجد بخطّه أنّ مؤلّفاته بلغت نحو مائتين وخمسين كتابًا، وقيل: زادت على ثلاثمائة. أمّا ما ذُكر من

(١) يُنظر: ابن الجوزي، صيد الخاطر، فصل أوّله: «مِن أضرّ الأشياء على العوامّ».

(٢) يُنظر: ابن الجوزي، دفع شبه التشبيه بأكفّ التنزيه، ص ١٣٨.

(٣) يُنظر: ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، ج١، ص١٧٤.

أعدادٍ أكبر من ذلك، فقد دخل فيه عدُّ الأجزاء الصغيرة والرسائل والمجالس المفردة، وربّما وقع فيه شيء من المبالغة.

وتوزّعت مؤلّفاته على علوم كثيرة؛ فمن كتبه في التفسير وعلوم القرءان: «زاد المسير في علم التفسير»، و«فنون الأفنان في عيون علوم القرءان»، و«نواسخ القرءان»، و«الوجوه والنظائر». ومن كتبه في الحديث وعلومه: «الموضوعات»، و«العلل المتناهية»، و«جامع المسانيد»، و«مُشكِل الصحيحين»، و«الوفا بأحوال المصطفى ﷺ».

ومن كتبه في التاريخ والتراجم: «المنتظم في تاريخ الملوك والأمم»، وهو من أوسع ءاثاره، و«صفة الصفوة»، و«مناقب الإمام أحمد»، وكتبٌ في مناقب الصحابة والعلماء والعُبّاد. وله في الفقه والخلاف: «التحقيق في أحاديث الخلاف»، و«الانتصار في المسائل الخلافيّة»، و«مسبوك الذهب في الفقه»، وغيرها.

وأمّا الوعظ والتربية وإصلاح القلوب، فهي أوسع أبواب تصنيفه وأشدّها اتصالًا بشهرته، وله فيها: «التبصرة»، و«التذكرة في الوعظ»، و«المدهش»، و«تلبيس إبليس»، و«ذمّ الهوى»، و«صيد الخاطر»، و«بحر الدموع»، و«بستان الواعظين»، و«تنبيه النائم الغمر على مواسم العمر»، و«الثبات عند الممات» وهو الكتاب الذي بين أيدينا اختصارُه، وغيرها.

ويمتاز أسلوبه في هذه الكتب بحسن التقسيم، وسهولة العبارة، وكثرة الشواهد، وسرعة الانتقال من الخبر إلى العبرة، ومن الحكاية إلى محاسبة النفس. وقد يجمع الروايات المتقاربة أو يورد الخبر لأثره الوعظي، ولذلك يحتاج الباحث في الأسانيد والتخريج إلى الرجوع إلى كلام النُقّاد والمحقِّقِين مِن العلماء، ولا يكتفي بمجرد وروده في كتب الرقائق.

مِحْنَته ونَفْيه إلى واسط

أصابت ابنَ الجوزي في أواخر عمره مِحنةٌ شديدة، واختلفت المصادر في تفاصيل أسبابها، إلا أنّ الثابت أنّ بعض خُصومه سعَوا به إلى الخليفة الناصر، فخُتم على داره، وشُتّت عياله، وأُخذ على حالٍ من الإهانة، ثم حُمل في سفينة إلى واسط.

أُقيم في واسط نحو خمس سنين في حبسٍ ضيّق، وكان يقوم بخدمة نفسه، فيغسل ثوبه ويهيّئ طعامه، وقد جاوز الثمانين أو قاربها. ومع ذلك صبَر ولم يترك الاشتغال بالعلم والقرءان. ثم سعى ولده يوسف في خلاصه، وشفَعت فيه أمّ الخليفة، فأُطلِق وعاد إلى بغداد مكرَّمًا، واستأنف مجالس وعظه، فازدحَم الناس عليه، وعاد له من القبول ما كان له قبل المحنة.

وفاته

لم يَلبَث ابن الجوزي بعد عودته إلى بغداد إلا مدةً يسيرة. وقد مرض خمسة أيام، ثم توفّي في داره بقَطَفْتا من بغداد ليلة الجمعة في الثاني عشر من رمضان سنة سبع وتسعين وخمسمائة، وقيل: في الثالث عشر منه، عن عمر قارب التسعين.

وكان يوم جنازته يومًا مشهودًا؛ أُغلقت فيه الأسواق، وازدحم الخلق ازدحامًا شديدًا، وصلّى عليه ابنه أبو القاسم علي، ثم حُمل إلى جامع المنصور، وأعيدت الصلاة عليه، ولم يَصِلُوا به إلى قبره إلا قريبًا من وقت صلاة الجمعة لكثرة المشيِّعين. ودُفن بباب حرب قريبًا من قبر الإمام أحمد بن حنبل رحمهما الله تعالى[1].

---

(١) يُنظر: ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة (٣٩٩/١). ابن خَلِّكان، وفيات الأعيان (١٤٠/٣-١٤٢). ابن الأثير، الكامل في التاريخ (١٧١/١٢-١٧٢). ابن العماد، شذرات الذهب (٣٢٩/٤-٣٣٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قال الإمام الحافظ العلّامة الفقيه المتكلِّم المفسِّر اللُّغوِيّ المؤرِّخ أبو الفَرَج جمالُ الدين عبد الرحمن بن عليّ بن محمد القرَشيّ التَّيْميّ البَكْريّ المعروف بابن الجَوزيّ (ت ٥٩٧هـ) رحمه الله تعالى:

البابُ الأَوَّلُ فِي بَيانِ فَضِيلَةِ العَقْلِ والنَّقْلِ

قَدْ ثَبَتَ أَنَّ العَقْلَ هُوَ الآلَةُ الَّتِي عُرِفَ بِها الإِلَهُ[١]، وَحَصَلَ بِهِ تَصْدِيقُ الرُّسُلِ والتِزامُ الشَّرائِعِ، وَأَنَّهُ المُحَرِّضُ عَلَى طَلَبِ الفَضائِلِ، والمُخَوِّفُ مِن رُكُوبِ الرَّذائِلِ، والنّاظِرُ فِي المَصالِحِ والعَواقِبِ، فَهُوَ مُدَبِّرُ أَمْرِ الدّارَيْنِ، وَمَثَلُهُ كالضَّوْءِ فِي الظُّلْمَةِ؛ فَقَدْ يَقِلُّ عِنْدَ أَقْوامٍ فَيَكُونُ كَعَيْنِ الأَعْشَى[٢]، وَيَزِيدُ فَيَكُونُ كَنُورِ القَبَسِ[٣]، وَيَكُونُ عِنْدَ قَوْمٍ كَضَوْءِ الشَّمْعَةِ، وَعِنْدَ الكامِلِينَ كَطُلُوعِ الشَّمْسِ عَلَى عَيْنِ زَرْقاءِ اليَمامَةِ[٤]، وَلِهَذا تَتَفاوَتُ العُقَلاءُ فِي العُلُومِ والأَعْمالِ، فَيَنْبَغِي

(١) معناه أنّه استُدِلَّ بالعقلِ وأدِلَّتِه على وُجودِ الله عزَّ وجلَّ وأنّه لا شريكَ له، قادرٌ، مُريدٌ، لا يُشبِه شيئًا ولا يُشبهُه شيءٌ، كان قبلَ المَكانِ بلا كيفٍ ولا مَكانٍ، ولَم يزَل بعدَ خَلقِ العالَمِ بلا كيفٍ ولا مَكانٍ، إلى غيرِ ذلكَ مِمّا دلَّ عليه العقلُ السَّلِيمُ.

(٢) الأَعْشَى: مَن يضعف بصره ليلًا، ويُبصر نهارًا.

(٣) القَبَس: شُعلةٌ من نار تُقتبَس.

(٤) زَرقاء اليمامة امرأةٌ مِن العرَب القُدَماء، اشتهرَت بحِدّة بصَرها فقد كانت تُدمِنُ الاكتِحالَ بالإثمِد فضُرِبَ بها المثَل فَقِيل: «أبصَرُ مِن زرقاءِ اليمامة». يُروى أنها رأت جيشًا مُقبِلًا يَتستَّر بأغصان الشجَر مِن مَسيرةِ ثلاثة أيّامٍ فحذّرت قومَها فلَم يُصدّقوها، حتى باغَتَهم العدوّ وأهلَكَهُم.

لِمَنْ رُزِقَ العَقْلَ أَنْ لا يُخالِفَهُ وَلا يَخْلُدَ إِلَى[١] ضِدِّهِ وَهُوَ الهَوَى، فَمَتَى مالَ إِلَى الهَوَى صُيِّرَ الإِمامُ مَأْمُومًا[٢] وَذَلِكَ لا يَحْسُنُ.

فَصْلٌ

فَأَمّا النَّقْلُ؛ فَإِنَّ العَقْلَ لَمّا نَظَرَ[٣] فِي مُعْجِزاتِ الرُّسُلِ صَلَواتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ صَدَّقَهُمْ وَعَلِمَ أَنَّما أَتَوْا بِما أَتَوْا بِهِ عَن الخالِقِ[٤] سُبْحانَهُ، فَقَوْلُهُمْ مَعْصُومٌ عَن خَطَإٍ، مَحْفُوظٌ عَنْ غَلَطٍ، وَإِذْ قَدْ بانَ فَضْلُ العَقْلِ وَشَرَفُ النَّقْلِ لَزِمَ القَبُولُ مِنْهُما.

البابُ الثّانِي فِيما اتَّفَقَ عَلَيْهِ العَقْلُ والنَّقْلُ مِن أمرِ الدُّنْيا

مَنِ اسْتَخْبَرَ العَقْلَ والنَّقْلَ عَنْ وَضْعِ الدُّنْيا أَخْبَراهُ أَنَّها مارَسْتانُ[٥] بَلاءٍ، فَلا يُنْكِرُ وُقُوعَ البَلاءِ بِها، وَلَيْسَ فِيها لَذَّةٌ عَلَى الحَقِيقَةِ[٦]، إِنّما لَذَّتُها راحَةٌ مِن مُؤْلِمٍ، وَإِنَّما المُرادُ مِن الأَكْلِ إِقامَةُ خَلْفَ المُتَحَلِّلِ[٧]، ثُمَّ كَمْ فِيهِ مِن مَحْذُورٍ، فَإِنَّ الإِكْثارَ يُوجِبُ التُّخَمَةَ[٨]، وَمِنَ المَطاعِمِ مُؤَدٍّ بِالإِسْهالِ أَوْ بِالإِمْساكِ، وَمِنْها ما يُقَوِّي

(١) أخلَد إلى الشيء: مالَ إليه وسكَن.

(٢) أي إذا اتّبَع المرءُ هَواه صار تابعًا لِشهَواتِه بعد أنْ كان يقودها، فانقلَب المتبُوع تابعًا والمُوجِّه مُنقادًا.

(٣) أي نظَر فِكرٍ.

(٤) أي بوَحيٍ مِن الله عزَّ وجلَّ إلى أنبيائِه عليهم الصلاةُ والسلام.

(٥) المارَسْتان: بفتح الراء دار المرضى أي المستشفى.

(٦) أي بالنظَر إلى كونِها ليست إلّا زوالَ ألمٍ أو سَدَّ حاجةٍ سابقةٍ كما سيُبَيِّنُه.

(٧) أي تعويض ما يَتحلَّل مِن البدن بالغِذاء.

(٨) التُّخَمة: ثِقَلٌ وفساد يَعرِضان من الإفراط في الطعام.

بَعْضَ الأَخْلاطِ[١].

وَإِنَّما جُعِلَتِ اللَّذَّةُ فِي التَّناوُل كالبِرْطِيلِ[٢]، وَكَذَلِكَ الوَطْءُ فَإِنَّ المُرادَ مِنْهُ إِقامَةُ الخَلَفِ[٣]، وَكَمْ فِي ضِمْنِهِ مِن أَذًى أَقَلُّهُ قِلَّةُ القُوَى، وَتَعَبُ الكَسْبِ، وَمقاساةُ[٤] أَخْلاقِ المُعامَلَةِ.

وَمَتَى حَصَلَ مَحْبُوبٌ كانَ نَغَصُهُ[٥] يُرْبِي عَلَى[٦] لَذّاتِهِ، وَيا سُرْعانَ ذَهابِهِ مَعَ قُبْحِ ما يَجْنِي[٧]، وَأَقَلُّ ءافاتِهِ الفِراقُ الَّذِي يَنْكُبُ الفُؤادَ[٨] وَيُذِيبُ الأَجْسادَ.

وَكُلُّ ما يُظَنُّ مِن الدُّنْيا سَرابٌ[٩]، وَعِمارَتُها وَإِنْ حَسُنَتْ صُورَتُها خَرابٌ[١٠]، وَمَجِيئُها إِلَى مُجِيبِها ذهابٌ، وَمَنْ خاضَ الماءَ الغَمْرَ[١١] لَمْ يَجْزَعْ مِن بَلَلٍ، كَما أَنَّ

(١) هي الأربعة التي جعَل عليها الأطبّاء قِوام البدن هي الدمُ والبَلغَم والصفراء والسوداء.

(٢) البِرْطيل: الرِّشوة، والمراد أنّ اللَّذّة جُعِلت حافزًا إلى تناوُل الغذاء.

(٣) أي وكذلك الجماع، فإنّ المقصود منه إنجاب الذرّيّة التي تَخلُف الآباء فيَستمِرُّ بها النَّسلُ.

(٤) المقاساة: المكابدة ومعالجة الشِّدة، والمراد احتمال أخلاق مَن يُعامِلُه.

(٥) نغَّصَه: كدَّره وأفسَد صَفْوَه.

(٦) أي يَزِيد ويَعلُو.

(٧) أي ما أسرعَ زوالَ ذلك المحبوب وانقضاء لذّاته مع ما يُخلِّفُه مِن عواقب وءالام فتَذَهب المتعة وتبقى تَبِعاتُها.

(٨) أي يُصِيبُه بِنَكْبة.

(٩) أي كلّ ما يَتخيَّلُه المرء في الدُّنيا من لذّة خالصة وسعادة باقية فهو كالسَّراب، يُغتَرّ بمَظهره، فإذا بلَغَه المرءُ لَم يَجِد فيه ما كان يَرجُوه.

(١٠) أي وإنْ بدا ظاهرُها جميلًا جذّابًا، فإنّ باطنَها مَلِيء بالنَّقص والآفات، ومآل ما فيها إلى الزَّوال.

(١١) الماء الغَمْر: الماء الكثير الذي يَغمُر داخِلَه.

مَنْ دَخَلَ بَيْنَ الصَّفَّيْنِ لَمْ يَخْلُ مِن وَجَلٍ[١].

والعَجَبُ لِمَنْ يَدُهُ فِي سَلَّةِ الأَفاعِي كَيْفَ يُنْكِرُ اللَّسْعَ، وَأَعْجَبُ مِنْهُ مَنْ يَطْلُبُ مِن المَطْبُوعِ عَلَى الضُّرِّ[٢] التَّمَنُّعَ، وَما أَحْسَنَ قَوْلَ الشّاعِرِ:

طُبِعَتْ عَلَى كَدَرٍ وَأَنْتَ تُرِيدُها ... صَفْوًا مِـن الأَقْـذارِ والأَكْـدارِ
وَمُكَلِّفُ الأَيّامِ ضِدَّ طِباعِها ... مُتَطَلِّبٌ فِي الماءِ جَذْوَةَ نارِ[٣]
وَإِذا رَجَوْتَ المُسْتَحِيلَ فَإِنَّما ... تَبْنِي الرَّجاءَ عَلَى شَفِيرٍ هارِ[٤]

وَلَوْلا أَنَّ الدُّنْيا دارُ ابْتِلاءٍ لَمْ تَعْتَوِرِ الأَمْراض[٥] والأَكْدار، وَلم يَضِق العَيْشُ عَلَى الأَنْبِياءِ والأَخْيارِ وَلَقَدْ لَزِقَ بِهِمُ البَلاءُ[٦] وَعَدِمُوا الرّاحَةَ، وَلَوْ خُلِقَتِ الدُّنْيا لِلَذَّة لَمْ يُبْخَسْ حَظُّ المُؤْمِنِ مِنْها[٧]، فَإِنَّ الجَمَلَ يَأْكُلُ أَكْثَرَ مِنْهُ، والعُصْفُورُ يُسافِدُ[٨]

---

(١) الوَجَل: الخوف، ومعناه مَن دخَل بين صفَّي المقاتلِين لم يَسلَم مِن الخوف على نَفسِه في العادة.

(٢) أي يُتعجَّب ممّن يُخالِط أسباب الأذى ثم يَستغرِب إصابتَه به، وأشَدُّ تعَجُّبًا منه مَن يَرجُو النَّفع والسلامة ممّا طَبِيعته الإضرارُ كمَن يَطلُب الراحةَ الخالصة مِن الدنيا.

(٣) الجَذْوة: القِطعة الغليظة من الحطب، وقد تكون فيها نار بلا لهب.

(٤) الشفير: الحافة بتخفيف الفاء، وهارٍ: مُتَداعٍ ساقط.

(٥) تَعْتَوِر الأمراض: تتعاقب وتتداول.

(٦) لَزِقَ بهم البلاء: لزمهم ولم يفارقهم.

(٧) أي لو كانت الغايةُ مِن خَلق الدُّنيا التنعُّمَ بلَذّاتها مَا نقَص نَصيبُ المؤمن منها، ولكنّها دار ابتلاءٍ واختبارٍ وعمَل وليست دار الخُلود والجزاء الأبديّ.

(٨) يُسافِد: يُجامِع أُنْثاه؛ وأكثرُ استعماله في الطير والحيوان.

أَكْثَرَ مِنْهُ، وَقَدْ قالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**الدُّنْيا سِجْنُ المُؤْمِنِ**[١] **وَجَنَّةُ الكافِرِ**[٢]»[٣]، وَإِذ بانَ أَنَّها دارُ ابْتِلاءٍ وَسَجْنٍ وَمِحَنٍ فَلا يَنْبَغِي أَنْ يَقَعَ جَزَعٌ مِن البَلْوَى.

البابُ الثّالِثُ فِي ذِكْرِ المُصابِ بِالمَحْبُوبِ مِن الأَهْلِ

المَرْءُ رَهْنُ مَصائِبٍ لا تَنْقَضِي ... حَتَّى يُوارَى جِسْمُه فِي رَمْسِهِ[٤]
فَمُؤَجَّلٌ يَلْقَى الرَّدَى[٥] فِي غَيْرِهِ ... وَمُعَجَّلٌ يَلْـقَى الـرَّدَى فِي نَفْسِـهِ

[علاج فَقْد المحبوب بثمانية أشياء]

وَعِلاجُ فَقْدِ المَحبُوبِ بِثَمانِيَةِ أَشياءَ:

أَحَدُها: أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ القَدَرَ قَدْ سَبَقَ بِذَلِكَ، قالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾[٦] ثُمَّ قالَ سُبْحانَهُ: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾[٧] والمَعْنَى أَنَّ المَصائِبَ مُقَدَّرَةٌ لا أَنَّها وَقَعَتْ عَلَى وَجْهِ الاتِّفاقِ كَما يَقُول الطَّباعِيُّونَ[٨] وَلا أَنَّها عَبَثٌ بَلْ هِيَ صادِرَةٌ عَمَّنْ

(١) أي بالنّسبة للبَلاءِ والتَّعبِ الذي فيها أمامَ ما أُعِدَّ له مِن النَّعيم في الآخرة.

(٢) أي بالنسبة لِمَا أُعِدَّ له مِن العذاب في الآخرة.

(٣) أخرجه مسلم في «صحيحه»، كتاب الزهد والرقائق، (٢٩٥٦)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) الرَّمْس: القبر، وأصله السَّتر والتغطية.

(٥) الرَّدى: الهلاك والموت.

(٦) نبرأها: نَخلقها ونوجدها.

(٧) أي لكَيلا تَحزنوا حُزنا كبيرًا على ما فاتَكُم مِن أمر الدُّنيا.

(٨) الطَّباعِيُّون: القائلون بأنّ الحوادث تقع بفعل الطبائع لا بتقدير الله، ومقالَتهُم هذه كُفرٌ باتّفاقِ المسلمين، قال تعالى: ﴿يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾.

صَدَرَتْ عَنْهُ مُحْكَماتُ الأُمُورِ وَمُتْقَناتُ الأَعْمالِ[١]، وَإِذا كانَتْ صادِرَةً عَنْ تَدْبِيرِ حَكِيمٍ لا يَعْبَثُ[٢] إِمّا لِزَجْرٍ عَنْ فَسادٍ أَوْ لِتَحْصِيلِ أَجْرٍ أَوْ لِعُقُوبَةٍ عَلَى ذَنْبٍ وَقَعَ التَّسَلِّي بِذَلِكَ.

الثّانِي: العِلْمُ بِأَنَّ الدُّنْيا دارُ الابْتِلاءِ والكَرْبِ لا يُرْجَى مِنْها راحَةٌ.

وَما اسْتَغْرَبَتْ عَيْنِي فِراقًا رَأَيْتُهُ وَلا أَعْلَمَتْنِي غَيْرَ ما القَلْبُ عالِمُهُ

والثّالِث: العِلْمُ بِأَنَّ الجَزَعَ مُصِيبَةٌ ثانِيَةٌ[٣].

والرَّابِع: أَنْ يُقَدِّرَ وُجُودَ ما هُوَ أَكْبَرُ مِن تِلْكَ المُصِيبَةِ كَمَنْ لَهُ وَلَدانِ ذَهَبَ أَحَدُهُما.

والخامِس: النَّظَرُ فِي حالِ مَنِ ابْتُلِيَ بِمِثْلِ هَذا البَلاءِ فَإِنَّ التَّأَسِّيَ[٤] راحَةٌ عَظِيمَةٌ.

والسّادِس: النَّظَرُ فِي حالِ مَنِ ابْتُلِيَ بِأَكْثَرَ مِن هَذا البَلاءِ فَيَهُون هَذَا.

والسّابِع: رَجاءُ الخَلَفِ إِنْ كانَ مِن مَعْنًى يَصْلُحُ عَنْهُ الخَلَفُ كالوَلَدِ والزَّوْجَةِ[٥].

والثّامِن: طَلَبُ الأَجْرِ بِحَمْلِ أَعْباءِ الصَّبْرِ، فَلْيَنْظُرْ فِي فَضائِلِ الصَّبْرِ وَثَوابِ الصّابِرِينَ وَسِيرَتِهِمْ فِي صَبْرِهِمْ، وَإِنْ تَرَقَّى إِلَى مَقامِ الرِّضَى[٦] فَهُوَ الغايَةُ.

---

(١) أي كائنةٌ بتكوينِ اللهِ مُكوِّنِ المخلُوقاتِ كُلِّها وصُنعِه الدالِّ على حِكمَتِه.

(٢) أي لا يفعل شيئًا عبثًا بلا حكمةٍ.

(٣) أي أن يَعلَم المرءُ أنّ شِدّة الهَلَع وفقدان الصَّبر عند المُصِيبة يَزِيدان أَلَمَه ولا يَرُدّان ما فاتَه، فيَجتمِعُ عليه أَلَمُ المُصِيبة وأَلَمُ الجَزَع.

(٤) التأسِّي: الاقتداء بالغير والتصبُّر بملاحظة ما أصابه.

(٥) أي رَجاءَ أنْ يُعوِّضَه الله عمّا فقَده، إذا كان ممّا يُمكِنُ حُصول بدَلٍ عنه؛ كأنْ يُرزَق بولدٍ ءاخَر أو يَتزوَّج بعد فَقدِ زَوجتِه فيَخِفّ بذلك حُزنُه.

(٦) أي الرِّضَى الكامِل وذلك بكمالِ التَّسلِيم لله وعدَمِ العِصيانِ بسبَبِ البلاءِ النازِل.

فَصْلٌ فِي فَضائِلِ الصَّبْرِ

في «الصَّحِيحين» من حديث أبي سعيد الخُدرِيّ رضي الله عنه عن النَّبِيّ ﷺ أنّه قال: «**ما أُعطِيَ أحَدٌ عَطاءً خَيرًا وأَوْسَعَ مِن الصَّبْرِ**[١]»[٢].

وعَنْ مَحْمُودِ بْنِ لَبِيدٍ أَنّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قالَ: «**إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ إذا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلاهُم**[٣]**، فَمَنْ صَبَرَ فَلَهُ الصَّبْرُ، وَمَن جَزِعَ فَلهُ الجَزَعُ**[٤]»[٥].

وَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الصَّبْرُ فِي أَوَّلِ صَدْمَةٍ؛ فَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» مِن حَدِيثِ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قالَ: «**الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأُولَى**[٦]»[٧].

وَيَنْبَغِي أَنْ يَحْتَسِبَ عِنْدَ اللَّهِ تَعالَى ما أُخِذَ مِنْهُ[٨]، وَيُوقِنَ بِحُسْنِ الجَزاءِ، وَذَلِكَ

---

(١) أي مِن أعظَمِ ما يُعطاه المرءُ نِعمةً ونَفعًا الصَّبرُ المَرْضيّ.

(٢) متّفق عليه. أخرجه البخاري في «صحيحه»، كتاب الزكاة، باب الاستعفاف عن المسألة، (١٤٦٩)، ومسلم في «صحيحه»، كتاب الزكاة، باب فضل التعفّف والصبر، (١٠٥٣)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، واللفظ للبخاري.

(٣) أي أنّ اللهَ إذا رَضِيَ عن عَبدٍ بأنْ جَعَلَه تَقِيًّا ابْتلاهُ لِيَرفَع له درَجتَه.

(٤) أي مَن صبَر على البلاء نال ثمَرةَ صَبرِه وأجرَه، ومَن جَزِعَ لَم يَرُدَّ بِجَزعِه المُصيبةَ، وإنّما زاد نفسَه ألمًا وحَسرةً.

(٥) أخرجه أحمد في «المسند» من حديث محمود بن لبيد رضي الله عنه، (٢٣٦٢٣).

(٦) أي إنّما الصَّبرُ المحمودُ أثَرُه عند الصَّدمةِ الأُولى أي عِندَ مُفاجأةِ المُصِيبةِ، أمّا لو جَزِعَ أوّلًا ثمّ صبَر بعد ذلكَ فقد فوَّتَ على نَفسِه عَظِيمَ الثَّوابِ على الصَّبرِ عند أوّل البلاء.

(٧) متّفق عليه. أخرجه البخاري في «صحيحه»، كتاب الجنائز، باب زيارة القبور، (١٢٨٣)، ومسلم في «صحيحه»، كتاب الجنائز، باب في الصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى، (٩٢٦)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، واللفظ لمسلم.

(٨) أي أن يرجُوَ مِن الله الأجرَ والثوابَ على صَبرِه لِفَقدِ ما أُخذ منه، فيَتحمَّل مُصِيبتَه طَلبًا لرِضَى الله وحُسن جَزائِه.

يُهَوِّنُ الصَّبْرَ.

وَمِنْ عَلامَةِ الصَّبْرِ الكَفُّ عَنْ تَمْزِيقِ ثَوْبٍ أَوْ لَطْمِ خَدٍّ وَحَبْسُ اللِّسانِ عَن اعْتِراضٍ وَتَسَخُّطٍ، وَلْيَعْلَمِ العاقِلُ أَنَّ البَلايا ضُيُوفٌ فَلْيُعِدَّ لَها قِرَى الصَّبْرِ(١).

وَقالَ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلامُ لِلأَشْعَثِ بْنِ قَيْسٍ: «إِنَّكَ إِنْ صَبَرْتَ إِيمانًا واحْتِسابًا وَإِلّا سَلَوْتَ(٢) كَما تَسْلُوْ البَهائِمُ».

فَصْلٌ

وَأَمّا ثَوابُ الصّابِرِ عَلَى فَقْدِ الأَوْلادِ ففيه عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ قالَ: قالَ رَسُول اللَّهِ ﷺ لِلنِّساءِ: «**ما مِنْكُنَّ امْرَأَةٌ يَمُوتُ لَها ثَلاثَةٌ مِن الوَلَدِ إِلا كانُوا لَها حِجابًا مِن النّارِ**»، فَقالَتِ امْرَأَةٌ: واثْنَيْنِ؟ فَقالَ رَسُول اللَّهِ ﷺ: «**واثْنَيْنِ**»(٣).

وَكُلَّما قَرُبَ المَحْبُوبُ المُسْتَلَبُ(٤) مِن القَلْبِ كانَ الأَجْرُ عَلَى قَدْرِ ذَلِكَ.

فَصْلٌ

فَأَمّا الرِّضاءُ بِالقَضاءِ فَهُوَ الغايَةُ، قالَ أَبُو الدَّرْداءِ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ إِذا قَضَى

---

(١) في الأصلِ القِرَى قِرَى الضَّيف: ما يُهيّأ له مِن ضيافة، والمرادُ مَا يَستقبِلُ به البلاءَ مِن الصَّبر.

(٢) سَلا عن مُصِيبَتِه: ذهَب حُزنُه ونَسِيَها مع الزَّمن.

(٣) متّفق عليه. أخرجه البخاري في «صحيحه»، كتاب العلم، باب هل يُجعل للنساء يومٌ على حِدةٍ في العلم، (١٠١)، ومسلم في «صحيحه»، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل من يموت له ولد فيحتسبه، (٢٦٣٣)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، بألفاظ متقاربة.

(٤) المُستلَب: المأخوذ قهرًا وانتزاعًا.

قَضاءً أَحَبَّ أَنْ يُرْضَى بِهِ[١]».

وَقالَ أَبُو عبد الله البَراثِيّ: «مَن وُهِبَ لَهُ الرِّضَى فَقَدْ بَلَغَ أَقْصَى الدَّرَجاتِ[٢]».

وَقالَتْ رابِعَةُ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ إِذا قَضَى لأَوْلِيائِهِ قَضاءً لَمْ يَتَسَخَّطُوهُ[٣]».

وَقُتِلَ لِبَعْضِ الصّالِحِينَ وَلَدٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَبَكَى، فَقِيلَ لَهُ: أَتَبْكِي وَقَدِ اسْتُشْهِدَ؟! فَقالَ: إِنَّما أَبْكِي كَيْفَ كانَ رِضاهُ عَن اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ[٤] حِينَ أَخَذَتْهُ السُّيُوفُ.

فَإِنْ قِيلَ: قَدْ يُتَصَوَّرُ الصَّبْرُ، فَأَمّا الرِّضى بِالمَكْرُوهِ فَكَيْفَ يُتَصَوَّرُ؟

فالجَوابُ: أَنَّ نُفُورَ الطَّبْعِ مِن المُنافِي لا يُضادّ رِضَى القَلْبِ بِالقَدَرِ[٥]، فَإِنَّما نَرْضَى بِالقَضاءِ وَإِنْ كَرِهْنا المَقْضِيَّ[٦].

وَقالَ عَلْقَمَةُ فِي قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾: هِيَ المُصِيبَةُ تُصِيبُ الرَّجُلَ فَيَعْلَمُ أَنَّها مِن عِنْدِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَيُسَلِّمُ لَها وَيَرْضَى.

---

(١) أي إذا قدَّر اللهُ على العبد أمرًا أحَبَّ منه أن يَتلقّاه بالرِّضى بِحِكْمَتِه وتَركِ التسَخُّط وإنْ تألَّم العبدُ لِمَا أصابَه وله في مُقابلِ ذلك ثوابٌ جزيلٌ مِن الله تعالى.

(٢) أي بلغَ درَجاتٍ عاليةً، ولا يبلُغ العبدُ بالاكتسابِ والجِدِّ درجةَ الأنبياءِ، فتلكَ درجَةٌ اصطفَى اللهُ بِها مَن شاءَ مِن عِبادِه وختَم بهِم محمّدًا ﷺ فلا نَبِيَّ بعدَه.

(٣) أي لَم يُقابِلُوه بالسَّخَط وعدَم الرِّضَى بل قابلَوا ذلك بالتَّسلِيم والضَّراعة والصَّبرِ.

(٤) الرِّضا عن الله معناه التَّسليمُ لله عزّ وجلّ وعدمُ الاعتراضِ عليه.

(٥) أي أنّ كراهيةَ النَّفْس للألَم والمصائب أمرٌ لا يُنافِي رضَى القلبِ بقَضاء الله، فقد يَتألّم الإنسانُ ويَحزَن مع تَسلِيمه للهِ وتَركِ الاعتراضِ عليه.

(٦) أي بعضَ المَقضِيِّ.

[من أخبار الصابِرين والراضِين]

ماتَ وَلَدٌ لأَبِي طَلْحَةَ مِن أُمِّ سُلَيْمٍ فَقالَتْ لأَهْلِها: لا تُحَدِّثُوا أَبا طَلْحَةَ بِابْنِهِ حَتَّى أَكُونَ أَنا أُحَدِّثُهُ، قالَ: فَجاءَ فَقَرَّبَتْ إِلَيْهِ عَشاءً فَأَكَلَ وَشَرِبَ، ثُمَّ تَصَنَّعَتْ لَهُ[١] أَحْسَنَ ما كانَتْ تَصْنَعُ قَبْلَ ذَلِكَ، فَوَقَعَ بِها[٢]، فَلَمّا رَأَتْ أَنَّهُ قَدْ شَبِعَ وَأَصابَ مِنْها قالَتْ: يا أَبا طَلْحَةَ، أَرَأَيْت لَو أَنّ قومًا أَعارُوا عارِيَتَهُمْ أَهْلَ بَيْتٍ وَطَلَبُوا عارِيَتَهُمْ أَلَهُمْ أَنْ يَمْنَعُوهُمْ؟ قالَ: لا، فَقالَتْ: فاحْتَسِبِ ابْنَكَ[٣].

ومات عبدُ اللهِ بْنُ مُطَرِّفٍ فَخَرَجَ مُطَرِّفٌ عَلَى قَوْمِهِ فِي ثِيابٍ حَسَنَةٍ وَقَدِ ادَّهَنَ[٤]، فغَضِبُوا وَقالُوا: يَمُوت عبدُ اللهِ ثُمَّ يَخْرُجُ فِي ثِيابٍ مِثْلِ هَذِهِ مُدَّهِنًا؟! قالَ: أَفَأَسْتَكِينُ لَها[٥]؟! لَقَدْ وَعَدَنِي تَبارَكَ وَتَعالَى عَلَيْها ثَلاثَ خِصالٍ، لَكُلُّ خِصْلَةٍ مِنْها أَحَبُّ إِلَيَّ مِن الدُّنْيا كُلِّها، قالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾[٦].

---

(١) تصنَّعت له: تزيَّنت وتحسَّنت له.

(٢) أي جامَعَها.

(٣) أي فاصبِر على فَقْدِ ابْنِك، واحتَسِب مُصِيبتَك عند الله، طالبًا الأجرَ والثواب منه، ولا تَجزَعْ أو تَتسخَّطْ على قضائِه.

(٤) ادّهَن: استعمَل الدُّهن في جسَده أو شَعره.

(٥) أي أفأَخضَعُ وأذِلُّ وأُظهِرُ الانكسارَ لها تارِكًا العمَل بالسُّنَن والطاعات.

(٦) أي لهُم مَغفِرةٌ مِن رَبِّهم ورَحمةٌ خاصّةٌ.

[خطَر الجزَع والاعتراض]

وَقَدْ خُذِلَ خَلْقٌ كَثِيرٌ عِنْدَ مَوْتِ أَحْبابِهِمْ؛ فَمِنْهُمْ مَنْ خَرَّقَ ثَوْبَهُ(١)، وَمِنْهُمْ مَنْ لَطَمَ(٢)، وَمِنْهُمْ مَنِ اعْتَرَضَ(٣).

وَلَقَدْ رَأَيْتُ رَجُلًا كَبِيرًا قَدْ قارَبَ الثَّمانِينَ وَكانَ يُحافِظُ عَلَى الجَماعَةِ فَماتَ وَلَدٌ لابْنَتِهِ فَقالَ: ما يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَدْعُوَ فَإِنَّهُ لا يَسْتَجِيبُ(٤)، ثُمَّ قالَ: إِنَّ اللَّهَ يُعانِدُنا فَما يَتْرُكُ لَنا وَلَدًا(٥). وَهَؤُلاءِ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ(٦).

البابُ الرّابِعُ فِي ذِكْرِ المُصِيباتِ المُخْتَصَّةِ بِذاتِ الإِنْسانِ

[التأهُّب في الصِّحّة والوَصِيّة في المرَض]

إِنِّي رَأَيْتُ جُمْهُورَ النّاسِ(٧) إِذا طَرَقَهُمُ المَرَضُ(٨) اشْتَغَلُوا تارَةً بِالجَزَعِ مِنْهُ

(١) أي جَعَل فيه خَرْقًا أو مَزّقَه مِن شِدّة الجَزَع.

(٢) أي لطَمَ الوَجْه على جِهة الجَزَع عند المُصيبة.

(٣) أي ومِنهُم مَن وَقَعَ في الكُفرِ بالاعتراضِ على اللهِ، والعياذُ باللهِ، وذلكَ كقولِ بعض الناس عند نُزولِ المُصيبة: "يا ربّ، لِمَ تفعَلُ بنا ذلك؟! ماذا فعلنا لك حتى فعلتَ بنا ذلك؟! لماذا تُعامِلنا بهذه الطريقة؟!" كلُّه على وجه الاعتراض على الله، وهو كفرٌ، والعياذُ بالله، ويُخرِجُ ذلك قائلَه مِن الإسلام، ولا يصحّ رُجوعُه إلى الإسلام إلا بالنطقِ بالشهادتَين متبرّئًا من الكُفر الذي بَدَر منه.

(٤) وهذا كُفرٌ لأنّه تحقيرٌ لأمرِ الدُّعاء.

(٥) وهذا مِن أقبَح الكُفرِ، وهو مُخرِجٌ مِن الإسلام، والعياذُ بالله.

(٦) أي على طرَفٍ مِن الدِّين لا في وسَطِه، فإنْ أصابَتْهُم مُصيبةٌ كَفَر مِنهُم مَن كَفَر والعياذُ بالله.

(٧) أي أكثرَ النّاس.

(٨) أي نزَل بهِم وأصابَهُم.

والشَّكْوَى وَتارَةً بِالتَّداوِي إِلَى أَنْ يَشْتَدَّ فَيَشْغَلُهُم اشْتِدادُهُ عَن الالْتِفاتِ إِلَى المَصالِحِ مِن وَصِيَّةٍ أَوْ فِعْلٍ لِلْخَيْرِ أَوْ تَأَهُّبٍ لِلْمَوْتِ، فَكَمْ لَهُ مِن ذُنُوبٍ لا يَتُوبُ مِنْها، أَوْ عِنْدَهُ وَدِيعَةٌ لا يَرُدُّها، أَوْ عَلَيْهِ دَيْنٌ أَوْ زَكاةٌ أَوْ فِي ذِمَّتِهِ ظُلامَةٌ[١] لا يَخْطُرُ لَهُ تَدارُكُها، وَإِنَّما حُزْنُهُ عَلَى فِراقِ الدُّنْيا إِذْ لا هِمَّةَ لَهُ سِواها، وَرُبَّما أَفاقَ فَأَوْصَى بِجَوْرٍ، وَسَبَبُ هَذا ضَعْفُ الإِيمانِ كَما قالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝٢٩ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾، وَقَدْ عَمَّ هَذا أَكْثَرَ الخَلْقِ نَعُوذُ بِاللَّهِ مِن الخِذْلانِ[٢].

فَيَنْبَغِي لِلْمُتَيَقِّظِ أَنْ يَتَأَهَّبَ فِي حالِ صِحَّتِهِ قَبْلَ هُجُومِ المَرَضِ، فَرُبَّما ضاقَ الوَقْتُ عَنْ عَمَلٍ أَوِ اسْتِدْراكِ فارِطٍ[٣] أَوْ وَصِيَّةٍ.

وعَنْ ابْنِ عُمَرَ أَنّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قالَ: «**ما حَقُّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَبِيتُ لَيْلَتَيْنِ وَلَهُ شَيْءٌ يُوصِي فِيهِ إِلّا وَوَصِيَّتُهُ مَكْتُوبَةٌ عِنْدَهُ**[٤]» أَخْرَجاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ[٥].

فَإِنْ لَمْ يَكُنْ أَوْصَى فِي الصِّحَّةِ فَلْيُبادِرْ فِي أَوَّلِ المَرَضِ فَلْيُوصِ، وَلْيَحْذَرْ مِن الجَوْرِ

---

(١) الظُّلامة: حقُّ المظلوم الذي يَطلبُه ممّن ظَلَمه.

(٢) أي نَستجِيرُ باللهِ ليَحفَظَنا مِن عدَمِ التَّوفيقِ للطاعةِ ونسألُه الثَّبات على الإيمانِ والطاعة.

(٣) الفارط هنا الفائت، سواء أكان عن تقصيرٍ أم غيره ممّا يُقضى ويُستدرك، فيُحتاج إلى تَدارُكه.

(٤) لفظُ الحديثِ دالٌّ على الحثِّ على الوصِيّة لِمَن له شيءٌ يُوصِي به، ومذهب جمهور العلماء أنّ الأمرَ بها للنَّدبِ. أمّا مَن كان عليه حقوقٌ ماليّةٌ وله مالٌ ولَم يَبْقَ له وقتٌ في الحياة يسَعُ بحسَب الظاهر أنْ يُوفِّيَه بنَفْسِه أو بِغَيره فإنّ الوَصِيّةَ بذلك واجبةٌ.

(٥) متّفق عليه. أخرجه البخاري في «صحيحه»، كتاب الوصايا، باب الوصايا، (٢٧٣٨)، ومسلم في «صحيحه»، كتاب الوصية، (١٦٢٧)، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما بألفاظ متقاربة.

فِي وَصِيَّتِهِ[١]، فَفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قالَ: «**إِنَّ الرَّجُل لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ الخَيْرَ سَبْعِينَ سَنَةً، فَإِذا أَوْصَى جارَ فِي وَصِيَّتِهِ[٢] فَيُخْتَمُ لَهُ بِشَرِّ عَمَلِهِ فَيَدْخُلُ النّارَ[٣]، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ الشَّرَّ سَبْعِينَ سَنَةً فَيَعْدِلُ فِي وَصِيَّتِهِ فَيُخْتَمُ لَهُ بِخَيْرِ عَمَلِهِ فَيَدْخُلُ الجَنَّةَ**»[٤].

[الصَّبر على المرَض يُذْهِب الخطايا]

وَلْيَعْلَم المَرِيضُ أَنَّ المَرَضَ يُذهِبُ الخَطايا، وَكُلَّما اشْتَدَّ المَرَضُ كانَ أَذْهَبَ لَها.

عَن عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنه قالَ: دَخَلْنا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ يُوْعَكُ[٥]، فَمَسِسْتُهُ فَقُلْتُ: يا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّكَ لَتُوعَكُ وَعْكًا شَدِيدًا، فَقالَ: «**أَجَلْ إِنِّي أُوْعَكُ كَما يُوْعَكُ رَجُلانِ مِنْكُم[٦]**»، قُلْتُ: إِنَّ لَكَ أَجْرَيْنِ؟ فَقالَ: «**نَعَمْ، والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ[٧] ما عَلَى الأَرْضِ مُسْلِمٌ يُصِيبُهُ أَذًى مِن مَرَضٍ فَما سِواهُ إِلَّا حَطَّ اللَّهُ عَزَّ**

---

(١) أي ليجتَنِب الظُّلم في وصيّته، بأنْ يَحرِمَ بعضَ أصحابِ الحقوق مِن حُقوقهم، أو يَخُصَّ أحدًا بما لا يجوز له شرعًا.

(٢) أي ظلَمَ فيها.

(٣) أي يكونُ لِذَنْبِه ذلكَ شُؤْم فيقَعُ في الكُفرِ بسبَب شُؤم المعصية، والعياذُ بالله تعالى.

(٤) أخرجه ابن ماجه في «السنن»، كتاب الوصايا، باب الحيف في الوصية، (٢٧٠٤)، وأحمد في «المسند»، (٧٧٤٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بألفاظ متقاربة. وأخرج الترمذي نحوه (٢١١٧) وقال: «حديث حسن صحيح غريب».

(٥) الوَعْك: أذَى الحُمَّى ووَجَعُها في البدن.

(٦) أي تُصِيبُني قُوّة الحُمَّى وحِدَّتُها ضِعفَ ما تُصِيبُ رَجُلًا مِنكُم.

(٧) أي أحلِفُ بِاللهِ الَّذِي نَفْسِي تحتَ مَشِيئتِهِ وتَصَرُّفِهِ. وَاللهُ مُنَزَّهٌ عَنِ الجارِحةِ والعُضْوِ.

وَجَلَّ مِن خَطَاياهُ(١) **كَما تَحُطُّ الشَّجَرَةُ وَرَقَها**(٢)»(٣)، و«**مَا مِن مُصِيبَةٍ تُصِيبُ المُسْلِمَ إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِها**(٤) **عَنْهُ حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشاكُها**(٥)»(٦) والحَدِيثانِ فِي «الصَّحِيحَيْنِ».

و«**لا يَزالُ البَلاءُ بِالمُؤْمِنِ والمُؤْمِنَةِ فِي جَسَدِهِ وَفِي مالِهِ وَفِي وَلَدِهِ حَتَّى يَلْقَى اللَّهَ**(٧) **وَما عَلَيهِ خَطِيئَةٌ**(٨)»(٩).

وفِي حَدِيث جابرٍ رضي الله عنه أَنّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قالَ: «**الحُمَّى تُذْهِبُ خَطايَا بَنِي ءادَمَ كَما يُذْهِبُ الكِيْرُ خَبَثَ الحَدِيدِ**(١٠)»(١١).

---

(١) أي غَفَرَها له.

(٢) أي كما تُلقِيه الشجَرةُ.

(٣) متّفق عليه. أخرجه البخاري في «صحيحه»، كتاب المرضى، باب أشدّ الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، (٥٦٤٨)، ومسلم في «صحيحه»، كتاب البر والصلة والآداب، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن، (٢٥٧١)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه بألفاظ متقاربة.

(٤) أي غَفَرَ الله له بسبَب صَبرِه على نُزولِ ذلك البلاء به.

(٥) أي يُصاب بها. والشَّوكة ههنا المرّة مِن شاكَهُ، ولو أرادَ واحدةَ النَّبات لقال: يُشاك بِها.

(٦) متّفق عليه. أخرجه البخاري في «صحيحه»، كتاب المرضى، باب ما جاء في كفّارة المرض، (٥٦٤٠)، ومسلم في «صحيحه»، كتاب البر والصلة والآداب، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن، (٢٥٧٢)، من حديث عائشة رضي الله عنها، واللفظ للبخاري دون زيادة «عزّ وجلّ».

(٧) أي يَلقَى الموتَ الّذي قدَّرَهُ الله عليه.

(٨) أي يَغفِرُ الله له تفضُّلًا منه عزَّ وجلّ.

(٩) أخرجه أحمد في «المسند»، (٧٨٥٩)، والترمذي في «الجامع»، كتاب الزهد، باب ما جاء في الصبر على البلاء، (٢٣٩٩)، بألفاظ متقاربة، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

(١٠) الكِيْر: مِنْفاخ الحدّاد أو مَوقِدُه. وخَبَثُ الحَدِيد: وَسَخُه وشَوائِبُه الّتي يُزِيلُها الصَّهْر.

(١١) أخرجه مسلم في «صحيحه»، كتاب البر والصلة والآداب، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن، (٢٥٧٥)، من حديث جابر رضي الله عنه.

[الأَدْوِية السَّبْعةَ عشَر]

فَإِذا اشْتَدَّ المَرَضُ عَلَيْهِ فَلْيُداوِ نَفْسَهُ بِسَبْعَةَ عَشَرَ دَواءً، قَدْ ذَكَرْنا مِنْها ثَمانِيَةً فِيما تَقَدَّمَ.

والتّاسِع: أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهُ كَيْفَ جَرَى القَضاءُ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ، ففي الحديثِ: «**عَجِبْتُ مِن قَضاءِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِلْمُؤْمِنِ؛ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ**(١)، **وَلَيْسَ ذَلِكَ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ**(٢)، **إِنْ أَصابَتْهُ سَرّاءُ**(٣) **فَشَكَرَ**(٤) **كانَ خَيْرًا، وَإِنْ أَصابَتْهُ ضَرّاءُ**(٥) **فَصَبَرَ كانَ خَيْرًا لَهُ**»(٦) أخرَجَه مُسْلِمٌ.

والعاشِر: أَنَّ تَشْدِيدَ البَلاءِ يَخْتَصُّ بِالأَخْيارِ(٧)، فعَنْ مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ عَنْ أَبِيهِ رضي الله عنه قالَ: قُلْتُ يا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ النّاسِ أَشَدُّ بَلاءً؟ قالَ: «**الأَنْبِياءُ ثُمَّ الصّالِحُونَ ثُمَّ الأَمْثَلُ فالأَمْثَلُ مِن النّاسِ**(٨)، **يُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ**(٩)، **فَإِنْ**

---

(١) أي يَنال الثوابَ في السَّرّاء إنْ شَكَرَ وفي الضّراءِ إنْ صَبَرَ.

(٢) أمّا الكافرُ فلا ثوابَ له ألبتّة، قال الله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾.

(٣) أي نَعْماءُ وسَعةُ عَيْشٍ ورَخاءٌ وتَوفِيقٌ إلى طاعةٍ.

(٤) أي الشُّكرَ الواجبَ وهو عدَم استِعمالِ النِّعمة في معصية اللهِ، ولو شكَرَ شُكرًا مندوبًا بعد ذلك كان حسَنًا.

(٥) أي فَقرٌ ومرَضٌ ومِحْنةٌ وبَلِيّةٌ.

(٦) أخرجه أحمد في «المسند»، (٢٣٩٢٤) من حديث صهيب رضي الله عنه بلفظ قريب، وأخرجه مسلم في «صحيحه»، كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كلّه خير، (٢٩٩٩).

(٧) ليسَ معنى ذلك أنّ الأشرار لا يَنزِلُ بهِم البلاءُ، بل بَيانُه ما يأتِي بَعدُ.

(٨) الأمثَل فالأمثَل أي الأعلى مَنزِلةً في الدِّين فالأَعلَى.

(٩) أي بقَدْر قُوّة إيمانه وشِدّة ذلك وضَعفِه.

كانَ فِي دِينِهِ صَلابَةٌ[١] زِيدَ فِي بَلائِهِ[٢]، وَإِنْ كانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ[٣] خُفِّفَ عَنْهُ، وَما يَزالُ البَلاءُ بِالعَبْدِ حَتَّى يَمْشِيَ عَلَى ظَهْرِ الأَرْضِ وَلَيْسَ عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ[٤]»[٥].

ورُوِي أنّه كانَ بَينَ يَدَيْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عِنْدَ مَوْتِهِ رَكْوَةٌ[٦] أَوْ عُلْبَةٌ[٧] فِيها ماءٌ، فَجَعَلَ يُدْخِلُ يَدَيْهِ فِي الماءِ فَيَمْسَحُ بِها وَجْهَهُ وَيَقُولُ: «**لا إِلَهَ إِلّا اللَّهُ إِنَّ لِلْمَوْتِ سَكَراتٍ[٨]**»[٩].

الحادِي عَشَرَ: أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهُ مَمْلُوكٌ وَلَيْسَ فِي نَفْسِهِ شَيْءٌ[١٠].

والثّانِي عَشَرَ: أَنْ يَذْكُرَ عَظَمَةَ المُبْتَلِي[١١] ثُمَّ يُقَدِّرَ أَنَّهُ لا يَمْلِكُ نَفْسَهُ فَيَقُولُ:

---

(١) أي قُوّةٌ وثَباتٌ.

(٢) ويَعظُمُ له الأجرُ بالصَّبرِ على ذلكَ.

(٣) أي ضَعفٌ.

(٤) أي حتّى يُغفَرَ له كلُّ ذُنوبِه في حياتِه.

(٥) أخرجه أحمد في «المسند»، (١٤٨١) واللفظ له، والترمذي في «الجامع»، كتاب الزهد، باب ما جاء في الصبر على البلاء، (٢٣٩٨)، وابن ماجه في «السنن»، كتاب الفتن، باب الصبر على البلاء، (٤٠٢٣)، من حديث سعد رضي الله عنه، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

(٦) الرَّكْوة: إناء صغيرٌ مِن جِلدٍ يُشرَب فيه الماء ونحوُه.

(٧) العُلْبة: قدَحٌ يُحلَب فيه، وقد يُتّخَذ مِن جلد.

(٨) سَكَرات الموت: شَدائِدُه وغَمَراته الّتي تُضعِفُ مَن نَزَلَتْ به وتُغيِّبُه.

(٩) أخرجه البخاري في «صحيحه»، كتاب الرقاق، باب سكرات الموت، (٦٥١٠).

(١٠) أي أن يَعلَم العبد أنّه مِلْكٌ لله، وأنّ نَفْسَ العَبدِ وما لدَيه كُلّه للهِ، فلا يَستَغْني عن رَبِّه في شيءٍ طَرْفةَ عينٍ بل يَفتقِرُ العبدُ إلى اللهِ في وُجودِه وسائر أحواله.

(١١) أي أن يَستحضِرَ عظَمةَ الله الذي قدَّر عليه البلاء، فيحمله إجلالُه والثقةُ بحكمته على الصبر وترك التسخّط.

يا نَفْسُ، أَنَسِيتِ أَنَّ اللّهَ اشْتَراك[١]؟! فَإِنْ كُنْتِ رَضِيْت البَيْعَ فَما لَكِ فِيكِ شَيْءٌ[٢].

والثّالِثَ عَشَرَ: أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ هَذا الواقِعَ وَقَعَ بِرِضَى المالِكِ وَإِرادَتِهِ[٣]، فَيَجِبُ أَنْ يَقَعَ الرِّضَى بِما رَضِيَ بِهِ المالِكُ[٤].

والرّابِعَ عَشَرَ: أَنْ يُعاتِبَ نَفْسَهُ إِذا جَزِعَتْ[٥] فَيَقُول لَها: أَمَا عَلِمْتِ أَنَّ هَذا لا بُدَّ مِنهُ؟! فَما وَجْهُ الجَزَعِ مِمّا لا بُدَّ مِنْهُ.

والخامِسَ عَشَرَ: أَنْ يَقُولَ لِنَفْسِهِ: إِنَّما هِيَ ساعَةٌ ثُمَّ كَأَنْ لَمْ يَكُنْ ما كانَ. وَلْيَتَذَكَّرْ أَمْراضًا جَرَتْ عَلَيْهِ[٦] فَبالَغَتْ فِي أَلَمِهِ ثُمَّ ذَهَبَتْ كَأَنْ لَمْ يَكُنْ، وَإِنَّما

---

(١) أي قُل لِنَفْسِك: يا نَفْسُ أَنَسِيتِ أنّكِ بُذِلْتِ في سَبيلِ الله وابتغاءَ مَرضاتِه، ووَعَدَكِ اللهُ في مُقابِل ذلك الجنَّة؟ قال الله تعالى:﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ ، فتذكَّرِي يا نَفسُ العَهدَ، واصبِري على ما يُصِيبُكِ في سَبِيلِه.

(٢) أي إنْ كُنتِ يا نَفسُ قد رَضِيتِ بِالبَذْلِ للهِ طَلَبًا للجنّة، فلا تَعمَلِي عمَلَ المُدَّعِي الاستِقلالَ بالتصَرُّف فيها بل الْزَمي طاعةَ اللهِ واصبِرِي على قَضائِه.

(٣) أي أنْ يَعلَم أنّ ما أصابَه مِن البلاء وقَع بِمَشيئةِ الله، مالِكِه ومالكِ أَمرِه، فيُسلِّم لِتَدبيرِه ويَصبِرُ، عالمًا أنّه لم يَقَع شيءٌ إلّا بإرادته عزّ وجلّ.

(٤) أي يجبُ التَّسليمُ لله في تقديره وقضائِه وتَدبيره، ولا يَلزَم مِن ذلكَ الرِّضَى بِكُلّ مقدُورٍ ومَقضِيّ؛ فالكُفرُ والمعصية يقَعانِ بمَشِيئَةِ الله وعِلمِه وقُدرَتِه وتقديرِه، لكنّ اللهَ لا يُحِبُّهما ولا يَرضاهما، ولا يَجوزُ لِلعَبدِ الرِّضَى بالكُفر والمعصية، فالرِّضَى بالكُفرِ كُفرٌ، وبالمعصيةِ معصيةٌ.

(٥) أي أنْ يَلُوم نَفْسَه إذا فَقَدَتِ الصَّبرَ عِندَ البلاء، ويُذكِّرَها بأنَّ الجَزَعَ لا يَرفَعُ المُصِيبةَ، وبِمَا أعدَّه اللهُ للمؤمنين الصّابرِين مِن الأجر.

(٦) أي مِن قَبلُ ومضَتْ.

الاعْتِبارُ بِالعَواقِبِ(١)، وَمَنْ تَأَمَّلَ العاقِبَةَ هانَ عَلَيْهِ البَلاءُ.

وفي الحديثِ: «**يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِن أَهْلِ النّارِ(٢) فَيُصْبَغُ فِي النّارِ صَبْغَةً(٣)، ثُمَّ يُقالُ(٤): يا ابْنَ ءادَمَ، هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لا واللَّهِ يا رَبِّ(٥)، وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النّاسِ بُؤْسًا(٦) فِي الدُّنْيا مِن أَهْلِ الجَنَّةِ فَيُصْبَغُ فِي الجَنَّةِ صَبْغَةً فَيُقالُ لَهُ: يا ابْنَ ءادَمَ، هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لا واللَّهِ يا رَبِّ ما مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ وَلا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ**»(٧).

والسّادِسَ عَشَرَ: أَنْ يَتَخايَلَ الانْتِقالَ إِلَى نَعِيمِ الجَنَّةِ الَّذِي لا انْقِطاعَ لَهُ، فَما قَدْرُ تِلْكَ اللَّحْظَةِ بَلْ ما قَدْرُ جَمِيعِ عُمْرِ الدُّنْيا بِالإِضافَةِ إِلَى البَقاءِ السَّرْمَدِيّ(٨)، وَبَيانُ هَذَا أَنّا لَوْ قَدَّرْنا أَنَّ اللَّهَ سُبْحانَهُ وَتَعالَى كَبَسَ السَّمَواتِ والأَرْضَ وَما بَيْنَهُما

---

(١) أي لِيَتَذكّر أنّ العِبرة بما تنتهي إليه الأمور، لا بشِدَّتِها وقتَ وُقوعِها فحسبُ، فإنْ خُتِمَ له بالرِّضَى عن الله بمعنَى التسليمِ وعدَمِ الاعتراضِ وبالصَّبرِ على البلاءِ كان هذا العبدُ فائزًا فوزًا عظيمًا، وإنْ جَزِعَ فعصَى أو كَفَر والعياذُ باللهِ كان خاسرًا خُسرانًا بعيدًا.

(٢) أي بأكثَرِهم نِعمةً فيها مِن لذّات الدُّنيا وزَهْرَاتِها وهو في الآخِرة مِن أهل النّارِ.

(٣) بفتح الصاد أي يُغمَسُ فيها غَمْسةً، ويَستمِرُّ عليه العذابُ إذْ كان مِن الكافرين، فليس معنَى ما في الحديثِ أنّه لا يحصُل له مِن العذاب سوى ذلك في الآخرة بل عليه عذابٌ لا ينتهي.

(٤) يُقال له ذلك مِن غير أن يُخرَج منِها.

(٥) فكأنَّه لغَلَبةِ العذاب عليه يُصيبُه الذُّهول عمّا مضَى له في الدنيا مِن النَّعيم فيقول ذلك.

(٦) أي شِدّةً.

(٧) أخرجه مسلم في «صحيحه»، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب صبغ أنعم أهل الدنيا في النار وصبغ أشدّهم بؤسًا في الجنة، (٢٨٠٧)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٨) السَّرمَدِيّ: الدائم الذي لا يَنقَطِع.

بِخَرْدَلٍ[١] ثُمَّ خَلَقَ طائِرًا واحِدًا وَأَمَرَهُ أَنْ يَنْقلَ كُلَّ أَلْفِ أَلْفِ عامٍ خَرْدَلَةً، تَصَوَّرْ نَفادَ ذَلِكَ وَبَقاءُ أَهْلِ الجَنَّةِ لا نَفادَ لَهُ، وَمَنْ تَخايَلَ البَقاءَ السَّرْمَدِيَّ وَأَنَّهُ باقٍ فِي النَّعِيمِ السَّرْمَدِيِّ بِإِبْقاءِ الخالِقِ سُبْحانَهُ - وَبَقاؤُهُ[٢] لا يَنْقَطِعُ - طاشَ فَرَحًا[٣] وَنَسِيَ كُلَّ أَلَمٍ، وَإِذَا كانَ المَوْتُ هُوَ الطَّرِيقَ إِلَى ذَلِكَ النَّعِيمِ هانَ.

وصحَّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أنّه قَالَ: «**يُنادَى أَهْلُ الجَنَّةِ**[٤]: **إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْيَوْا فَلا تَمُوتُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلا تَسْقَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشِبُّوا فَلا تَهْرَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا فَلا تَبْأَسُوا أَبَدًا**»[٥].

والسّابِعَ عَشَرَ: أَنْ لا يَعْجَبَ بِما يَبْذُلُ مِن الصَّبْرِ بِالإِضافَةِ إِلَى عَظَمَةِ الحَقِّ[٦]، فَيَكُون كَمُحْتَقِرِ هَدِيَّةٍ إِلَى مَلِكٍ كَبِيرٍ[٧].

[ساعة الصَّبر وثمَرة العمَل السابق]

وَلْيَعْلَم أَنَّ هَذا الصَّبْرَ والتَّماسُكَ إِنَّما هُوَ ساعَةٌ مِن الزَّمانِ أَوْ نَحْوُها ثُمَّ يَغِيبُ الذِّهْنُ فَلا تُحِسُّ بِأَلَمٍ، وَيَنْبَغِي أَنْ يُشَجِّعَ نَفْسَهُ وَيَقُولَ: «إِنَّما هِيَ ساعَةٌ».

---

(١) كَبَسَها بالخَرْدَل أي مَلَأَها به مَلْئًا مُتَراكمًا مَضغُوطًا.

(٢) أي بقاءُ النَّعِيم مستمِرٌّ.

(٣) أي كاد يَغِيبُ مِن شدّة الفرَح.

(٤) أي يُنادِيهم وهُم في الجنّةِ ملَكٌ بأمرِ الله تعالى.

(٥) أخرجه مسلم في «صحيحه»، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في دوام نعيم أهل الجنة، (٢٨٣٧).

(٦) أي أنْ لا يُعْجَبَ بِصَبْرِه ولا يَسْتَكْثِرَه بل يرَى صَبره قليلًا مَهْما عَظُمَ بالنَّظَر إلى أنّه يُطِيعُ اللهَ الخالِقَ الّذي هو أعظَم شأْنًا مِن كُلّ شيءٍ، فيَستحِقُّ سُبحانَه كَمالَ الطاعة والتسليمِ.

(٧) هو تقريبٌ للمعنَى بأنّ ما يَفعلَهُ قليلٌ بالنظَرِ إلى عظَمةِ شأنِ مَن يُطاعُ، وهو الله تعالى.

واعْلَمْ أَنَّ مَنْ حَفِظَ أَوامِرَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي صِحَّتِهِ حَفِظَهُ اللهُ فِي شِدَّتِهِ(١)، قالَ ﷺ: «**احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ(٢)، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ أَمامَكَ(٣)، تَعَرَّفْ إِلَى اللَّهِ فِي الرَّخاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشَّدَّةِ(٤)**»(٥).

[تَرْك الشَّكْوى ومبادَرة العمَل]

كانَ السَّلَفُ يَكْرَهُونَ الشَّكْوَى إِلَى الخَلْقِ(٦)، وهيَ وَإِنْ كانَ فِيها راحَةٌ إِلا أَنَّها تَدُلُّ عَلَى ضَعْفٍ، والصَّبْرُ عَنْها دَلِيلٌ عَلَى قُوَّةٍ، ثُمَّ إِنَّها قَدْ تُورِثُ شَماتَةَ الأَعْداءِ، وكانُوا يَكْرَهُونَ الأَنِينَ(٧)، فَمَتَى أَمْكَنَ الصَّبْرُ عَنْهُ فَيَنْبَغِي أَنْ يَصْبِرَ، فَإِذا غَلَبَ

---

(١) أي مَن حافظ على طاعةِ الله وامتثالِ أوامِره في حال الصحّة والعافية، تولّاه الله بِعَونِه ورِعايَتِه عند الشدائِد، وثَبَّته وأعانه على الصَّبر.

(٢) أي كُنْ مُطِيعًا لله مُؤتمِرًا بأوامرِه مُنتهِيًا عن نواهِيه مُجتنِبًا ما لا يُرضِيه يَحْفَظْكَ في نَفْسِك.

(٣) أي اعمَل بالطاعة لله وَحدَه واترُك مُخالفةَ أمرِه تَجِدْ حِفْظَهُ لك وتأييدَه وإعانتَه، وليس معناه أنّ اللهَ يكون حالًّا في الجهة المقابِلة لكَ، حاشا لله، فاعتقادُ الحُلول خارجٌ عن عقيدةِ المُسلِمين.

(٤) أي تَقَرَّب إلى اللهِ القُربَ المعنَوِيَّ بأداءِ الواجباتِ واجتنابِ المُحَرَّمات فِي حالةِ الرَّخَاءِ يُعِنْكَ فِي حالةِ الشِّدَّةِ بِتَفرِيجِ الكُرُبات عنكَ، وليس معنَى «يَعرِفْك» أنّ اللهَ يتَجَدَّدُ له عِلمٌ، حاشاهُ، فإنّ عِلمَ الله تعالى أزَلِيٌّ أبدِيٌّ، وهو عِلمٌ واحِدٌ لا يَتجَزَّأ ولا يتعَدَّدُ ولا يَزِيدُ ولا يَنقُصُ بل هو عِلمٌ واحِدٌ شامِلٌ لِكُلِّ المعلوماتِ جُملةً وتَفصِيلًا، فمَن قالَ بِتَجَدُّدِ عِلمِ اللهِ أو زَعَم ظُهورَ أمرٍ له كان خافيًا فليس مؤمنًا بالله ولا مُسلِمًا.

(٥) أخرجه أحمد في «المسند»، (٢٨٠٣)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، والترمذي في «الجامع»، (٢٥١٦)، دون جملة «تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدّة».

(٦) أي فيما لا قُدرةَ للخَلقِ على رَفعِه مِن الضُّرّ.

(٧) أي ما لَم يَكُن مغلُوبًا، لأنّه لو كان مِن غيرِ مغلُوبٍ فهو لغوٌ لا فائدةَ فيه.

المَرَضُ عُذِرَ[١].

وَقالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ لابْنِهِ: اقْرَأْ عَلَيَّ حَدِيث طاوُوسٍ أَنَّهُ كَرِهَ الأَنِينَ فِي المَرَضِ، فَقَرَأَ عَلَيْهِ فَما أَنَّ حَتَّى ماتَ.

وَكانَ جَماعَةٌ مِن السَّلَفِ يَجْعَلُونَ مَكانَ الأَنِينِ ذِكْرَ اللَّهِ سُبْحانَهُ والاسْتِغْفارَ والتَّعَبُّدَ[٢].

وقالَ أَبُو مُحَمَّدٍ الجُرَيرِيُّ[٣]: حَضَرْتُ عِنْدَ الجُنَيْدِ قَبْلَ وَفاتِهِ بِساعَتَيْنِ، فَلَمْ يَزَلْ تالِيًا وَساجِدًا، فَقُلْتُ لَهُ: يا أَبا القاسِمِ، قَدْ بَلَغَ بِكَ ما أَرَى مِن الجَهْدِ، فَقالَ: يا أَبا مُحَمَّدٍ، أَحْوَجُ ما كُنْتُ إِلَيْهِ هَذِهِ السّاعَةَ، فَلَمْ يَزَلْ تالِيًا وَساجِدًا حَتَّى فارَقَ الدُّنْيا.

[مَكايِد الشيطان عند الموت وجوابها]

قَدْ يَعْرِضُ إِبْلِيسُ لِلْمَرِيضِ والمُحْتَضَرِ[٤] فَيُؤْذِيهِ فِي دِينِهِ وَدُنْياهُ؛ فقَدْ رَوَى أَبُو اليَسَرِ عَن النَّبِيّ ﷺ أَنَّهُ كانَ يَدْعُو مُعَلِّمًا أُمَّتَه: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِن الغَرَقِ**

---

(١) هو في كُلِّ حالٍ غيرُ ءاثِمٍ بمجرّد الأنين، لكن لو ذكَرَ الله بدَلَ الأَنِين المُستطاع فهو خيرٌ له.

(٢) ينبغي التحذير مِن بدعة سيّئة وهي قيام بعض الناس بصوت الأنين «ءاه» ونحوِه في حِلَقِ الذِّكر قاصدِينَ أنّه اسم من أسماء الله، تعالى الله عن ذلك، فإنّ الأَنِينَ ليس اسمًا مِن أسمائه عزّ وجلّ، وقد حكم الحافظ أحمد بن الصدّيق الغُماري في كتابه «المداوي لعلل الجامع الصغير وشرحي المناوي» (٣٦/٤)، رقم (١٧٧٥) بالوَضْعِ على الحديث المكذوب بأنّ الأنينَ اسمٌ مِن أسماء الله، وقال بعد بيان حال محمد بن أيوب بن سُوَيد في إسناده: «فالحديث موضوع».

(٣) هو أحمدُ بن محمد بن الحسين الجُرَيريُّ أحدُ مَشاهيرِ الصُّوفيّة المتوفَّى سنة ٣١١هـ.

(٤) أي مَن حضَرَه الموتُ.

والحَرَقِ[١] والهَدْمِ[٢] وَأَعُوذُ بِكَ أَنْ يَتَخَبَّطَنِيَ الشَّيْطانُ[٣] عِنْدَ المَوْتِ»[٤].

وَقَدْ يَسْتَوْلِي عَلَى الإِنْسانِ حِينَئِذٍ فَيُضِلُّهُ فِي اعْتِقادِهِ، وَرُبَّما حالَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ، وَرُبَّما مَنَعَهُ مِن الخُرُوجِ مِن مَظْلَمَةٍ أَوْ ءايَسَهُ مِن رَحْمَةِ اللَّهِ وَيَقُولُ لَهُ: «قَدْ أَقْبَلَتْ إِلَيْكَ سَكَراتُ المَوْتِ لا تُطِيقُها الجِبالُ وَنَزْعٌ شَدِيدٌ، وَقَدْ كانَ أَنْ يَرْفُقَ بِكَ رَبُّكَ، فَما فائِدَةُ هَذا التَّعْذِيبِ؟! وَسَتُفارِقُ المَحْبُوباتِ، وَسَيَبْلَى هَذا البَدَنُ، ثُمَّ لا يُدْرَى أَيْنَ المَصِيرُ»، فَيَقَعُ بِهَذِهِ الوَساوِسِ القَلَقُ، وَرُبَّما جاءَ الاعْتِراضُ عَلَى القَدَرِ[٥].

فَيَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ تِلْكَ السّاعَةَ هِيَ مَصْدُوقَةٌ لِلْحَرْبِ[٦] وَحِينَ يَحْمَى الوَطِيسُ[٧]، فَيَنْبَغِي أَنْ يَتَجَلَّدَ[٨] وَيَسْتَعِينَ بِاللَّهِ عَلَى العَدُوِّ وَلْيَرْجِعْ عَنْهُ خائِبًا[٩].

وَيَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يُجِيبَ الشَّيْطانَ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ قالَهُ بِجَوابٍ[١٠]، فَيَقُولُ لَهُ: قَدْ عَرَفْتُ عَداوَتَكَ لِي، فَما وَجْهُ هَذا الإِشْفاقِ عَلَيَّ؟!

---

(١) بتحريك الراء.

(٢) أي سقوط البناء ووقوعه على الشيء.

(٣) أي يَصرَعَنِي ويَعبَث بي ويُضِلَّني. قال المُناويّ: «وهذا تعليمٌ للأُمّة، فإنّ شيطانَه أسلَم، ولا تسَلُّطَ له ولا لِغَيرِه عليه ﷺ كحال سائِر الأنبياء».

(٤) أخرجه أبو داود في «السنن»، كتاب الوتر، باب في الاستعاذة، (١٥٥٢)، والنسائي في «السنن»، كتاب الاستعاذة، باب الاستعاذة من التردّي والهدم، (٥٥٣١)، من حديث أبي اليسر رضي الله عنه.

(٥) الاعتراضُ على الله عزّ وجلّ في تقديرِه كفرٌ اتّفاقًا مُخرِجٌ مِن الإسلامِ.

(٦) أي ساعةٌ يَصْدُق فيها القتالُ ويَشتَدّ.

(٧) أي اشتدَّ القتال؛ والوَطِيس التَّنُّور، فاستُعِيرَ لاضْطِرام الحرب.

(٨) أي يَتكلَّف القوّة ويتَصبَّر.

(٩) أي لتَكُون عاقبةُ العدُوّ الخَيبةَ.

(١٠) أي واحدٍ.

ثُمَّ يُجَدِّدُ التَّوْبَةَ وَيَنْظُرُ فِيما يُوصِي بِهِ، وَيَخْرُجُ عَن المَظالِمِ، وَيَقْضِي الدُّيُونَ[١].

وَأَمّا السَّكَراتُ فَجَوابُهُ مِن سِتَّةِ أَوْجُهٍ:

أَحَدها: أَنَّنِي رُبَّما عُوْفِيْتُ مِن هَذا المَرَضِ، وَكَمْ مِن مَرَضٍ هُوَ أَشَدُّ مِن هَذا تَعْقُبُهُ العافِيَةُ، وَقَدْ عاشَ فُلانٌ وَفُلانٌ أَكْثَرَ مِنِّي وَما ءايَسَ.

والثّانِي: لِمَ تُعَجِّلُ لِيَ الفِكْرَةَ فِي الشِّدَّةِ والفِكْرَةُ فِيها شِدَّةٌ أُخْرَى؟!

والثّالِث: أَنَّهُ رُبَّما رُفِقَ بِي فِي تِلْكَ السَّكَراتِ، وَقَدْ يَكُونُ فِي طَيِّ الإِعْسافِ إِسْعافٌ[٢].

والرّابِع: قَدْ دانَ الأَمْرُ[٣] كَما قُلْتَ، أَيَنْفَعُنِي الجَزَعُ؟!

والخامِس: أَنَّ ما لا بُدَّ مِنْهُ لا بُدَّ مِنْهُ، وَقَدْ عِشْتُ أَكْثَرَ مِن فُلانٍ وَفُلانٍ.

والسّادِس: أَنَّهُ كُلَّما زادَتِ الشِّدَّةُ زادَ الأَجْرُ.

[دَفْع الاعتراض على القدَر]

وَأَمّا قَوْلُ إِبْلِيسَ: «ما وَجْهُ هَذا التَّعْذِيبِ وَهُوَ قادِرٌ عَلَى اللُّطْفِ» فَجَوابُهُ مِن وَجْهَيْنِ:

أَحَدِهِما: أَنَّ هَذا الاعْتِراضَ عَلَى المالِكِ[٤]، وَأَفْعالُهُ سُبْحانَهُ لا تُعَلَّلُ[٥]، وَفَرْضُ

---

(١) أي أوْ يأمُر بذلك.

(٢) أي قد يَكُون في باطن الشِّدّة لطفٌ ومَعُونة.

(٣) أي قَرُبَ وحان.

(٤) أي على اللهِ الخالِق.

(٥) أي لا يَفعَل اللهُ شيئًا لحاجةٍ يحتاجُها أو لغرَضٍ يزيدُ به كمالًا؛ فهو الغنيّ عن كلّ شيء، وأفعاله لا تخلو من الحكمة، وإن خفيت علينا.

العَقْلِ أَنْ يُسَلِّمَ(١) فَإِنَّهُ امْتَحَنَ الأَبْدانَ(٢) بِالأَعْمالِ الشّاقَّةِ وابْتَلَى العُقُولَ بِما لا تَفْهَمُهُ لِيُسَلِّمَ مِثْل إِيلامِ الحَيَوانِ وَرَجْمِ الزّانِي وَغَيْرِ ذَلِكَ.

فَيَنْبَغِي أَنْ يُلاحِظَ عَظَمَةَ المُتَصَرِّفِ وَيَعْلَمَ كَمالَ حِكْمَتِهِ وَذَلِكَ يُوجِبُ الاسْتِطْراحَ لِقَضائِهِ(٣) والتَّسْلِيمَ لأَمْرِهِ، وأنّ ما يَفْعَلُهُ الحَقُّ هو بِكَمالِ حِكْمَتِه، فالاعْتِراضُ عَلَيْهِ مِن أَقْبَحِ الأَحْوالِ(٤)، وَإِنَّما يَعْتَرِضُ مَنْ يَقِيسُ صِفَتَهُ بِصِفاتِ المَخْلُوقِينَ(٥)، فَسَلِّمْ لأَوْصافِهِ كَما سَلَّمْتَ لِذاتِهِ، فَهُوَ أَهْلٌ(٦) أَنْ يُسَلَّمَ لَهُ، وَلَسْتَ بِأَهْلٍ أَنْ تَعْتَرِضَ عَلَيْهِ، وَهَذا أَصْلُ الأُصُولِ(٧)، فَمَنْ تَأَمَّلَهُ وَفَهِمَهُ سَلِمَ مِن الآفاتِ(٨) والوَحْشَةِ(٩).

الثّانِي: أَنَّ هَذا الَّذِي ظاهِرُهُ تَعْذِيبٌ رُبَّما لَمْ يَكُنْ فِي الباطِنِ كَذَلِكَ، فَإِنَّهُ يَلْطُفُ

---

(١) أي الواجب على العاقل أن يُذعِن لحِكمة الله وتَدبِيره باستِعمال عقلِه، وألّا يَعتِرض على قضائه تعالى وإنْ خَفِيَتْ عنّا الحكمة.

(٢) أي ابْتلاها اللهُ تعالى.

(٣) أي إلقاءَ النَّفْس إلى حُكمِه بالتَّسلِيم له.

(٤) الاعتراض على الله مِن أشنَعِ الكُفرِ، والعياذُ بالله تعالى.

(٥) أي خاطبَه خِطابَ المخلُوقين فأجرَى عليه ما يَجري على بعضِهم مِن العتابِ وجوازِ التَّعييب عليه فقد كفَر به وجعَله مَقِيسًا على خَلقِه مِن هذه الحيثيّة، ومَن وصَف الله تعالى بشيءٍ مِن صِفاتِ الخَلقِ لَم يَكُن مُؤمنًا به بل هو كافرٌ بربّ العالمين.

(٦) أي مُستحِقٌّ.

(٧) أي في هذه المسألة.

(٨) أي المُضِرّاتِ في الدِّين.

(٩) أي الاستِيحاشِ الّذي قد يُصيبُ القَلبَ عِندَ نُزول البلاءِ.

بِالمُؤْمِنِ[١] عِندَ المَوتِ.

قالَ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ: تَأْتِي المَلائِكَةُ المُؤْمِنَ[٢] إِذا حَضَرَ[٣]، يَقُولُونَ: لا تَخَفْ مِمّا أَنْتَ قادِمٌ عَلَيْهِ، فَيُذْهِبُ اللَّهُ خَوْفَهُ، وَلا تَحْزَنْ عَلَى الدُّنْيا وَأَهْلِها، وَأَبْشِرْ بِالجَنَّةِ، فَيَمُوتُ وَقَدْ جاءَتْهُ البُشْرَى.

إِنَّ المَيِّتَ تَحْضُرُهُ المَلائِكَةُ[٤]، فَإِذا كانَ الرَّجُلَ الصّالِحَ قالُوا: اخْرُجِي أَيَّتُها النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ[٥] كانَتْ فِي الجَسَدِ الطَّيِّبِ، اخْرُجِي حَمِيدَةً[٦]، وَأَبْشِرِي بِرَوْحٍ[٧] وَرَيْحانٍ، وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبانَ[٨]، فَلا يَزالُ يُقالُ لَها ذَلِكَ حَتَّى تَخْرُجَ[٩] ثُمَّ يُعْرَجُ بِها[١٠] إِلَى السَّماءِ، فَيُسْتَفْتَحُ لَها[١١] فَيُقالُ: مَنْ هَذا؟ فَيُقالُ: فُلانٌ، فَيَقُولُونَ[١٢]:

---

(١) أي التَّقِيّ.

(٢) أي الكامِلَ التَّقِيَّ.

(٣) أي إذا حضَرَهُ الموتُ.

(٤) إن كان مؤمنًا تقيًّا حضرَتْهُ ملائكةُ الرَّحمة، وإنْ كان كافِرًا حضرَتْهُ ملائكة العذاب.

(٥) أي الرُّوح الطاهرةُ.

(٦) أي مَحمُودًا شأنُك.

(٧) أي راحةٍ ونعيمٍ.

(٨) أي أبشِرِي بأنّ الله قد رضِيَ عَنك.

(٩) أي مِن بدَنِ التَّقِيّ.

(١٠) أي تَصعَدُ ملائكةُ الرَّحمةِ بها.

(١١) أي يُطلَبُ أن يُفتَحَ لها.

(١٢) أي بعضُ ملائكةِ السَّماء الأُولى.

مَرْحَبًا بِالنَّفْسِ الطَّيِّبَةِ كانَتْ فِي الجَسَدِ الطَّيِّبِ، ادْخُلِي حَمِيدَةً، وَأَبْشِرِي بِرَوْحٍ وَرَيْحانَ، وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبانَ.

[فِراق المحبُوبات وبلاء البدن]

وَأَمّا قَوْلُهُ: «سَتُفارِقُ المَحْبُوباتِ»(١) فَجَوابُهُ مِن وَجْهَيْن:

أَحدهما: أَنَّ الأَغْلَبَ فِيما يُفارِقُهُ أَنَّهُ يُوشِكُ فِراقَهُ خُصُوصًا إِنْ كانَ شَيْخًا كَبِيرًا.

الثّانِي: الرَّجاءُ بِمُلاقاةِ مَنْ هُوَ أَحَبُّ إِلَيْكَ، وَدَلِيلُ ذَلِكَ أَنَّهُ ما مِن مُؤْمِنٍ يَمُوتُ فَيُحِبُّ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الدُّنْيا(٢)، وَما ذاكَ إِلّا لأَنَّهُ راحَةٌ عَظِيمَةٌ(٣).

وَأَمّا قَوْلُهُ: «سَيَبْلَى هَذا البَدَنُ»(٤) فَجَوابُهُ أَنَّ بِلَى المَرْكَبِ لا يَضُرُّ الرّاكِبَ(٥)، والنَّظَر إِلَى ما يُؤْذِي النَّفْسَ وَيَنْفَعُها(٦).

رُوِّينا عَن ابْنِ الزُّبَيْرِ رضيَ الله عنه أَنَّهُ قالَ لأَسْماءَ رضيَ الله عنها قَبْلَ قَتْلِهِ: يا أُمّاهُ، إِنِّي إِنْ قُتِلْتُ فَإِنَّما أَنا لَحْمٌ، لا يَضُرُّنِي ما صُنِعَ بِهِ(٧).

---

(١) أي قولُ الشَّيطان للمُحتضَر مُؤيِسًا له: «وَسَتُفارِقُ المَحْبُوباتِ».

(٢) يُستثنَى مِن ذلك شهيدُ المعركة، فقد صحَّ في الحديث عن النّبيّ ﷺ أنّه قال: «**مَا أَحَدٌ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ يُحِبُّ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الدُّنْيَا وَلَهُ مَا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا الشَّهِيدُ يَتَمَنَّى أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الدُّنْيَا فَيُقْتَلَ عَشْرَ مَرَّاتٍ لِمَا يَرَى مِنَ الْكَرَامَةِ**».

(٣) أي لأنّ الموتَ سببٌ للراحةِ فيما بعدُ، وذلك مِن حينِ تبشير الملَكِ للمُؤمنِ التّقيّ.

(٤) أي قولُ الشَّيطان للمُحتضَر مُؤيِسًا له: «وَسَيَبْلَى هَذا البَدَنُ».

(٥) أي إنْ بَلِيَ الجسَد فأيُّ شيءٍ يضُرُّ الرُّوح لو كان صاحبُها مُنَعَّمًا، معناه لا يضُرُّه ذلك شيئًا.

(٦) أي العبرةُ بذلك.

(٧) أي لا يضُرُّني ذلك عند الله إنْ كَتَبَ لي الراحةَ والنجاة.

وَإِذا ثَبَتَ هَذا فَإِنَّ الحَقَّ[١] سُبْحانَهُ أَتْلَفَ هَذا البَدَنَ التُّرابِيَّ[٢] المُعَرَّضَ لِلآفاتِ، فَإِنَّهُ سَيُبْدِلهُ بِبَدَنٍ لا يَبْلَى فِي حَياةٍ لا تَنْفَدُ، وَيُورِثُهُمْ عِلْمَ اليَقِين الَّذِي تُحَصِّلُ بِهِ العُقُولُ الشِّفاءَ وَيُبْدِلُ صُعُوباتِ التَّكْلِيفِ بِحُسْنِ الجَزاءِ، وَيُعْطِيهِمْ أُجُورًا باقِيَةً عَلَى أَعْمالٍ مُنْقَطِعَةٍ[٣]، وَلا يَبْقَى لِمُوارَثاتِ التَّكَلُّفِ والشَّعْثِ[٤] طَعْمٌ عِنْدَ الجَزاءِ[٥].

[حُسن الظنّ بالله عند الموت]

فَأَمّا قَوْلُهُ: «وَما تَدْرِي أَيْنَ المَصِيرُ»[٦] فَجَوابُهُ أَنِّي حَسَنُ الظَّنّ بِرَبِّي، مُؤْمِنٌ بِهِ، وَقَدْ عَرَفْتُ مَصِيرَ أَرْواحِ المُؤْمِنِينَ.

عَنْ جابِرٍ رضيَ الله عنه قالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَبْلَ مَوْتِهِ بِثَلاثٍ يَقُولُ: «**لا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلا وَهُوَ يُحْسِنُ بِاللَّهِ الظَّنَّ**[٧]»[٨].

---

(١) يعني اللهَ عزَّ وجلَّ، والحقُّ مِن أسمائِه معناهُ الموجودُ الّذي لا يجوزُ عدَمُه.

(٢) أي الحالُ في الأكثر كذلك، وإلّا فبعضُ الناس حَفِظَ الله عليهم أبدانَهم مِن أن يأكُلها الترابُ، وذلك كالأنبياء عليهم السلام وشُهداء المعركة وبعضِ الأولياء.

(٣) أي نعيمًا مستمِرًّا في الآخرة على عمَلٍ انقَضى في الدُّنيا.

(٤) الشَّعْث: تفَرُّقُ الحال وما يَلحَق الإنسان مِن تعَب واضْطِراب.

(٥) أي ما يَلقاه الإنسان مِن مشَقّة وتعَب واضْطِراب في حياته الدُّنيا يَتلاشى أثَرُه حين يُكرِمُه اللهُ تعالى بالنَّعِيم والجزاء الجَزِيل، فتُنسِيه لذّةُ الجزاء مَرارةَ العَناء.

(٦) أي قولُ الشَّيطان للمُحتضَر مُؤيِسًا له: «ثُمَّ لا يُدْرَى أَيْنَ المَصِيرُ».

(٧) أي لا يَنبغِي أن يَمُوت المؤمن قانِطًا مِن رحمةِ اللهِ بل يَنبغِي إحسانُ الظَّنّ باللهِ والطمَعُ في رحمتِه.

(٨) أخرجه مسلم في «صحيحه»، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الأمر بحسن الظنّ بالله تعالى عند الموت، (٢٨٧٧)، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

فَلْيَجْعَلِ المَرِيضُ حُسْنَ الظَّنِّ بِاللَّهِ شِعارَهُ وَدِثارَهُ[١]، وَلْيُقَوِّ نَفَسَ رَجائِهِ[٢]، فَإِنَّ الخَوْفَ سَوْطٌ تُساقُ بِهِ النَّفْسُ إِلَى الجِدِّ، وَما بَقِيَ فِي النّاقَةِ مَوْضِعٌ لِشَوْطٍ[٣]، إِنَّما حُسْنُ الظَّنِّ باللهِ جِدًّا[٤].

عَنْ أَنَس بنِ مالكٍ رضيَ الله عنه أَنّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ عَلَى شابٍّ وَهُوَ فِي المَوْتِ[٥] فَقالَ لَهُ: «**كَيْفَ تَجِدُكَ؟**» قالَ: أَرْجُو اللَّهَ[٦] وَأَخافُ ذُنُوبِي، فَقالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لا يَجْتَمِعانِ فِي قَلْبِ عَبْدٍ فِي مِثْلِ هَذا المَوْطِنِ[٧] إِلا أَعْطاهُ اللَّهُ ما يَرْجُو[٨] وَأَمَّنَهُ مِمّا يَخافُ[٩]**»[١٠].

وَلا بَأْسَ أَنْ يَتَذَكَّرَ الإِنْسانُ ما لَهُ مِن خَيْرٍ[١١] لِيَقْوَى قَلْبُهُ بِذَلِكَ. وكانُوا يَسْتَحِبُّونَ أَنْ يُلَقِّنُوا العَبْدَ مَحاسِنَ عَمَلِهِ عِنْدَ مَوْتِهِ لِكَيْ يُحْسِنَ الظَّنَّ بِرَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

---

(١) الشِّعار الثوبُ الملاصق للجسَد، والدِّثارُ فوقَه، والمراد ملازمةُ حُسن الظنّ ظاهرًا وباطنًا.

(٢) أي ليُجدِّد أمَلَه في رحمة الله وفَرَجِه، وليُطِل أمَد رَجائِه فلا ييأس وإنْ طال البلاء.

(٣) أي لم يَبْقَ في العُمر أو الطاقة مَجالٌ لِمَزيدِ سَعيٍ، والشَّوطُ مَسافةُ الجَرْي أو المرّةُ منه.

(٤) أي حُسنُ الظَّنِّ باللهِ تعالى.

(٥) أي في سَكَراتِه.

(٦) أي رحمَتَه.

(٧) في زمَن سَكَراتِ الموتِ ونَحوِه.

(٨) أي مِن الرَّحمة.

(٩) أي أمَّنَه مِن العُقوبة بالعفو والمغفِرة.

(١٠) أخرجه الترمذي في «الجامع»، كتاب الجنائز، (٩٨٣)، وابن ماجه في «السنن»، كتاب الزهد، باب ذكر الموت والاستعداد له، (٤٢٦١).

(١١) أي عَمِلَه.

[مَصِير أرواح المؤمنين]

وَمِمّا يُسَلِّي عَن المَوْتِ قَوْلُ بَعْضِ الحُكَماءِ:

قَدْ ماتَ كُلُّ نَبِيٍّ وَماتَ كُلُّ بَنِيهْ
وَماتَ كُلُّ لَبِيبٍ وَعالِمٌ وَفَقِيهْ
لا يُوْحِشَنْكَ طَرِيقٌ كُلُّ الخَلائِقِ فِيهْ

وَأَمّا مَصِيرُ أَرْواحِ المُؤْمِنِينَ[١] فَقَدْ ذَكَرْنا حالَها عِنْدَ الخُرُوجِ، وَلْيُعْلَمْ أَنَّها تَصِيرُ إِلَى النَّعِيمِ المُخَلَّدِ؛ فعَنْ كَعْبِ بْنِ مالِكٍ رضيَ الله عنه قالَ: قالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**نَسَمَةُ المُؤْمِنِ[٢] طَيْرٌ تَعْلَقُ فِي شَجَرِ الجَنَّةِ[٣] حَتَّى يُرْجِعَها اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى جَسَدِهِ[٤]**»[٥].

وَإِذا تَيَقَّنَ المُؤْمِنُ أَنَّ لِلنَّفْسِ وُجُودًا بَعْدَ المَوْتِ[٦]، وَأَنَّ نَفْسَ المُؤْمِنِ فِي راحَةٍ وَنَعِيمٍ هانَ عَلَيْهِ الأَمْرُ.

فِي الصَّحِيحَيْنِ: «**إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذا ماتَ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالغَداةِ والعَشِيِّ[٧]، إِنْ كانَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ فَمِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ[٨]، وَإِنْ كانَ مِن أَهْلِ النّارِ فَمِنْ أَهْلِ النّارِ،**

---

(١) يعني الأتقياءَ.

(٢) أي رُوحُه.

(٣) أي تأكُل مِن ثمَر شجَر الجنّة.

(٤) أي إذا بَلِيَ الجسَدُ بقِيَتْ الرُّوح تتنعَّمُ حتّى يُعادَ الجسَدُ عِندَ البَعثِ فتُعاد إليه الرُّوح.

(٥) أخرجه أحمد في «المسند»، (١٥٧٧٨)، والنسائي في «السنن»، كتاب الجنائز، باب أرواح المؤمنين، (٢٠٧٣)، وابن ماجه في «السنن»، كتاب الزهد، باب ذكر القبر والبِلى، (٤٢٧١).

(٦) أي مَن كان مُؤمِنًا فإنّه مُوقِنٌ بذلكَ لا يَشُكُّ فيه.

(٧) أي عُرِضَ عليه وهو في قَبرِه أوّل النهار وءاخِرَه مَقعَدُه في الآخِرة.

(٨) أي فيُعرَض عليه مَقعَدٌ مِن مقاعِد أهل الجنّة.

فَيُقالُ: هَذا مَقْعَدُكَ حَتَّى يَبْعَثَكَ اللَّهُ يَوْمَ القِيامَةِ[١]»[٢].

[التَّلقِين وحِراسة الإيمان]

فَإِذَا أَحَسَّ الإِنْسانُ بِالمَوْتِ فَيَنْبَغِي أَنْ يَلْهَجَ بِـ «لا إِلَهَ إِلّا اللَّهُ»[٣] وَيُوصِيَ مَنْ يُلَقِّنَهُ إِيّاها إِنْ غَفَلَ عَنْها لِيَكُونَ ءاخِرَ كَلامِهِ «لا إِلَهَ إِلّا اللَّهُ».

فعَن أبي سَعِيدٍ الخُدْرِيّ رضيَ الله عنه قال: قالَ رَسُول اللَّهِ ﷺ «**لَقِّنُوا مَوْتاكُمْ لا إِلَهَ إِلّا اللَّهُ**»[٤].

وعَنْ مُعاذٍ رضيَ الله عنه قالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَنْ كانَ ءاخِرَ كَلامِهِ لا إِلَهَ إِلّا اللَّهُ وَجَبَتْ لَهُ الجَنَّةُ**[٥]»[٦].

وعَن عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «احْضَرُوا مَوْتاكُمْ وَذَكِّرُوهُمْ، فَإِنَّهُمْ يَرَوْنَ ما لَا تَرَوْنَ[٧]، وَلَقِّنُوهُمْ لا إِلَهَ إِلّا اللَّهُ».

---

(١) أي المَقعَدُ المعروضُ مَقعَدُك بَعدُ، لا تَدخُلُه الآنَ ولا تَصِلُ إليه حتّى يَبعثَك اللهُ ويُحاسِبَك.

(٢) متّفق عليه. أخرجه البخاري في «صحيحه»، كتاب الجنائز، باب الميّت يُعرض عليه بالغداة والعشيّ، (١٣٧٩)، ومسلم في «صحيحه»، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب عرض مقعد الميّت من الجنة أو النار عليه وإثبات عذاب القبر والتعوّذ منه، (٢٨٦٦).

(٣) أي أنْ يُلازِم قولَها ويُكثِرَ منه.

(٤) أخرجه مسلم في «صحيحه»، كتاب الجنائز، باب تلقين الموتى لا إله إلا الله، (٩١٦).

(٥) أي مَن مات على ذلك الاعتقادِ ثبتَتْ له الجنّة.

(٦) أخرجه أحمد في «المسند»، (٢٢٠٣٤)، من حديث معاذ رضي الله عنه، وأبو داود في «السنن»، كتاب الجنائز، باب في التلقين، (٣١١٦)، بلفظ: «مَنْ كانَ ءاخِرَ كَلامِهِ لا إِلَهَ إِلّا اللَّهُ دَخَلَ الجَنَّةَ».

(٧) أي يُشاهِدُون عند الاحتضارِ ما لا يُشاهِدُه الحاضِرُون مِمّا يراه الميّت.

وَكَما يَنْبَغِي لِلْمَرِيضِ أَنْ يُحْضِرَ بِقَلْبِهِ ما ذَكَرْنا وَيَدْفَع كُلَّ ءافَةٍ بِما يَرُدُّها فَيَنْبَغِي أَنْ يَنْظُرَ إِلَى إِيمانِهِ هَلْ تَغَيَّرَ وَيَقِفَ حارِسًا لِقَلْبِهِ لِئَلّا يَدْخُلَهُ شَكٌّ أَوْ شِرْكٌ أَوِ اعْتِراضٌ وَتَسَخُّطٌ فَتَخْرُج النَّفْسُ عَلَى تِلْكَ الحالِ المَكْرُوهَةِ، بَلْ يَنْبَغِي أَنْ يَجْتَهِدَ فِي مُراعاةِ الإِيمانِ(١)، وَتَحْقِيقِ التَّوْبَةِ، وَمُلاحَظَةِ الرِّضَى بِالقَضاءِ(٢)، وَمَحَبَّةِ لِقاءِ المَوْلَى(٣)، وَحُسْنِ الظَّنِّ بِهِ، وَيَحْمَدَ اللَّه سُبْحانَهُ عَلَى ما قَدَّرَ لِتَكُونَ هَذِهِ الأَشْياءُ كالتَّقْوِيَةِ لِلشَّرْبَةِ المُرَّةِ، وَكُلُّ هَذا الجِهادِ ساعَةٌ(٤)، ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾.

[سوء الخاتمة والخوف من الخِذلان]

وَقَدْ خُذِلَ خَلْقٌ كَثِيرٌ عِنْدَ المَوْتِ؛ فَمِنْهُمْ مَنْ أَتاهُ الخِذْلانُ مِن أَوَّلِ مَرَضِهِ فَلَمْ يَسْتَدْرِكْ قَبِيحًا مَضَى(٥)، وَرُبَّما أَضافَ إِلَيْهِ جَوْرًا فِي وَصِيَّتِهِ(٦)، وَمِنْهُمْ مَنْ فاجَأَهُ الخِذْلانُ فِي ساعَةِ اشْتِدادِ الأَمْرِ فَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ، وَمِنْهُمْ مَنِ اعْتَرَضَ وَتَسَخَّطَ(٧)، نَعُوذُ بِاللَّهِ مِن الخِذْلانِ.

---

(١) أي يجبُ أن يَبذُل جَهْدَه في حِفظ إيمانه والثَّبات عليه، ويَحذَرَ ما يُفسِدُه مِن اعتقاد أو قول أو فعل، ولا سيّما عند اشتدادِ البلاء وقُربِ الموت.

(٢) أي أن يَتعهَّد قَلبَه بالرِّضى بقَضاء الله، فيَتلقَّى ما أصابَه بالتسليم له، ويَحذَر الاعتراضَ عليه.

(٣) أي لِقاءِ الموتِ الّذي قضاهُ اللهُ على العبدِ لِينالَ البُشرى كونَه مات نقِيًّا. وليس معنى لقاءِ اللهِ أنّ العَبدَ يُقابِلُ الله وبَينَه وبَينَه مَسافةٌ أو مُقابَلةٌ أو مُدابَرةٌ، لأنّ الله عزّ وجلّ لا يَتحيَّز في جهة ولا مكان، فهو تعالى مُستَغْنٍ عن العالَمين.

(٤) أي مُجاهدةُ النَّفسِ للثَّباتِ على الإيمان والصَّبرِ عند الاحتِضار مُجاهَدةُ مُدّةٍ قَصيرة.

(٥) أي فمِنهُم مَن خُذِلَ منذ بداية مرَضِه، فلم يَتدارَكْ ما مضى بالتَّوبة ورَدِّ الحقوق إلى أصحابها.

(٦) أي أنْ يَظلِمَ في الوَصِيّة، وسبَق الكلامُ عليه.

(٧) أي اعترَض علَى الله أو تَسخَّطَ عليه، وهو كُفرٌ، والعياذُ بالله.

وَهَذا مَعْنَى سُوء الخاتِمَةِ، وَهُوَ أَنْ يَغْلِبَ عَلَى القَلْبِ عِنْدَ المَوْتِ الشَّكُّ أَوِ الجُحُودُ[١] فَتُقْبَضُ النَّفْسُ عَلَى تِلْكَ الحالَةِ.

وَسَمِعْتُ أَنا رَجُلا كانَ كَثِيرَ الصَّوْمِ والتَّعَبُّدِ اشْتَدَّ بِهِ الأَلَمُ فافْتُتِنَ فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: «لَقَدْ قَلَّبَنِي فِي أَنْواعِ البَلاءِ، فَلَوْ أَعْطانِيَ الفِرْدَوْسَ ما وَفَّى بِما يَجْرِي عَلَيَّ[٢]»، ثُمَّ صارَ يَقُولُ: «وأَيُّ شَيْءٍ فِي هَذا الابْتِلاءِ مِن المَعْنَى؟! إِنْ كانَ مَوْتًا فَيَجُوزُ، فَأَمّا هَذا التَّعْذِيبُ فَأَيُّ شَيْءٍ المَقْصُودُ بِهِ؟![٣]».

وَهَذِهِ حالَةٌ إِنْ لَمْ يَنْعَمْ فِيها بِالتَّوْفِيقِ لِلثَّباتِ وَإِلّا فالهَلاكُ.

وَمِنْها[٤] كانَ يَقْلَقُ سُفْيانُ الثَّوْرِيُّ، فَإِنَّهُ كانَ يَقُولُ: «أَخافُ أَنْ يَشتَدَّ عَلَيَّ الأَمْرُ فَأَسْأَلَ التَّخْفِيفَ فَلا أُجاب فأُفْتَتَن[٥]».

وكانَ سُفْيانُ يَأْتِي إِبْراهِيمَ بْنِ أَدْهَمٍ فَيَقُولُ: «يا إِبْراهِيمُ ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَقْبِضَنا عَلَى التَّوْحِيدِ».

وقال عبدُ الرَّحمنِ بْنُ مَهْدِيٍّ: لَمّا اشْتَدَّ بِسُفْيانَ الثَّوْرِيِّ[٦] قالَ: «إِنِّي أَخافُ أَنْ أُسْلَب الإِيمان قَبْلَ أَنْ أَمُوتَ».

---

(١) أي إنكارُ ما يَضُرُّ بدِين المرءِ إنكارُه.

(٢) هذا مِن أشنَعِ الكُفرِ، والعياذُ باللهِ.

(٣) هذا كفرٌ شَنيعٌ أيضًا.

(٤) أي مِن سُوءِ الخاتِمة.

(٥) أي في دِينِي.

(٦) أي المرَضُ.

البابُ الخامِسُ فِي ذِكْرِ مَنْ ثَبَتَ عِنْدَ المَوْتِ

[أقسام دَوافع الثَّبات]

هَؤُلاءِ انْقَسَمُوا أَقْسامًا:

فَمِنْهُمْ مَنْ رَأَى أَنَّ الجَزَع مَمّا لا بُدَّ مِنْهُ لا يَنْفَعُ فَصَبَرَ.

وَمِنْهُمْ مَنْ أحَبَّ أَن يُذْكَر بِالصَّبْرِ وَيُمْدَح عَلَيْهِ، وَقَدْ رَأَيْنا جَماعَةً مِن اللُّصُوصِ عِنْدَ الصَّلْبِ[١] لا يَجْزَعُونَ.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَصْبِرُ لِئَلَّا يَشْمَتَ بِهِ الأَعْداءُ، كَما قالَ مُعاوِيَةُ عِنْدَ المَوْتِ وَقَدْ جَلَسَ وَتَجَلَّد:

وَتَجَــلُّدِي لِلشّــامِتِينَ أُرِيْهِــمُ ... أَنِّي لِرَيْبِ الدَّهْرِ لا أَتَضَعْضَعُ[٢]

وَإِذَا المَنِيَّــةُ أَنْشَــبَتْ أَظْفارَهــا[٣] ... أَلْفَيْــتَ كُلَّ تَمِيمَــةٍ لا تَنْفَــعُ[٤]

وَمِنْهُمْ مَنْ رَأَى الثَّوابَ فَصَبَرَ احْتِسابًا[٥].

وَمِنْهُمْ مَنْ كانَ يُؤْثِرُ المَوْتَ، وَهَؤُلاءِ يَنْقَسِمُونَ:

---

(١) أي القَتلِ.

(٢) أي إنِّي لِحَوادِث الدَّهرِ ونَوائِبه التي تُوقِع في الرَّيب والخوف لا أضعُف ولا أخَضَعُ ولا أَذِلُّ.

(٣) أي عَلَّقَتْها وأثْبَتَتْها، ومعناه إذا تمَكَّن الموت من الإنسان ولم يَعُد له منه مَهرَب.

(٤) أي وجدتَ أنَّ وسائِلَ الدَّفعِ لا تَنفَعُ.

(٥) أي ابتِغاءَ الأجرِ مِن اللهِ.

- فَمِنْهُمُ الفَلاسِفَةُ لُعِنُوا، الَّذِينَ يَرَوْنَ خُرُوجَ الرُّوحِ سَبَبَ عَوْدِها إِلَى عُنْصُرِها[١] فَيَخْتارُونَ ذَلِكَ. وَقَدِ اعْتَقَدَ جَماعَةٌ مِن الباطِنِيَّةِ أَنَّهُمْ إِذَا قُتِلُوا ظُلْمًا دَخَلُوا الجَنَّةَ، فَهُمْ يُؤْثِرُونَ القَتْلَ وَلا يَسْتَوْحِشُونَ مِن المَوْتِ.
- وَمِنْهُمْ قَوْمٌ خافُوا الفِتَنَ فَآثَرُوا المَوْتَ[٢]. قالَتْ عابِدَةٌ: «أُحِبُّ المَوْتَ مَخافَةَ أَنْ أَجْنِي عَلَى نَفْسِي جِنايَةً يَكُونُ فِيها عَطَبِي[٣]».
- وَمِنْهُمْ مَنْ جَرَتْ لَهُ خَطايا فَآثَرَ عِقابَ النَّفْسِ عَلَى ما جَنَتْ، كَما سَلَّمَ ماعِزٌ نَفْسَهُ إِلَى الرَّجْمِ والغامِدِيَّةُ[٤].
- وَمِنْهُمْ قَوْمٌ أَحَبُّوا المَوْتَ اشْتِياقًا إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ[٥]، وَعَلِمُوا أَنَّ المَوْتَ هُوَ السَّبِيلُ إِلَى ذَلِكَ.

وَقَدْ جَزِعَ أَقْوامٌ عِنْدَ المَوْتِ لأَسْبابٍ، مِنْها: غَلَبَةُ الخَوْفِ عَلَيْهِمْ إِمّا لِذُنُوبٍ أَوْ

---

(١) أي الأَصلِ الّذي تَرجِع إليهِ.

(٢) أي خافُوا أن تُفسِدَ الفِتَنُ عليهِم دِينَهم، ففَضَّلُوا الموتَ مع سلامةِ إيمانهم على البقاءِ مع الانحرافِ.

(٣) أي أُحِبّ الموتَ خوفًا مِن ارتكاب ذنبٍ أَهلِكُ به وأستحِقُّ بسبَبِه العذابَ، والعَطَبُ هنا الهلاكُ.

(٤) كان ثَبَت عليهِما الزِّنَى فانْقادَا لإقامةِ الحَدِّ عليهِما تنفيذًا لِحُكم الله وطمَعًا في المَغفِرة منه.

(٥) أي شوقًا لرُؤيَتِه عزَّ وجلَّ وهُم في الآخِرة في الجنّة والله عزَّ وجلَّ بلا كيفٍ ولا مكانٍ. فالمؤمنُون يَرَون ربَّهُم سبحانَه وهم في الجنّة وهو تعالى بلا كيفٍ ولا جِهةٍ ولا مكانٍ ولا حَيِّزٍ ولا مُقابَلةٍ لا كما يُرَى المخلوقُ، فاللهُ سُبحانَه ليس جسمًا، فلا يكون حالًّا في جهةٍ أو مكانٍ، فيَراهُ المؤمنون كما ءامَنُوا به أنّه لا شَبِيهَ له ولا مَثِيلَ ولا شَكلَ ولا جِسمَ ولا غيرَ ذلكَ مِن خَصائِص الخَلقِ، ولا هو في جهةٍ مِن الجهاتِ السِّتّ، وإِذَا رأَوه عرَفُوه أنّه اللهُ الّذي لا يُشبِهُ شيئًا ولا يُشبِهُه شيءٌ، ولا يكونُ سُبحانَه حالًّا معَهُم في الجنّة ولا يُقال هو خارِج الجنّةِ، فهو تعالى لا يحتاج إلى المَكانِ ولا إلى شيءٍ مِن العالَمِ، ومَعانِي التَّنزِيه هذه كُلُّها تُفهَم مِن قولِه تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾.

لِتَقْصِيرٍ أَوْ لِمُجَرَّدِ هَيْبَةِ ما يَلْقَوْنَ إِلّا أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يَرْجِعَ عِنْدَ المَوْتِ حُسْنُ الظَّنِّ والرَّجاءُ.

[مِن أخبار مَن قَبلنا]

[ذو القَرنَين]

رُوِيَ أَنَّ ذا القَرْنَيْنِ لَمّا رَجَعَ مِن مَشارِقِ الأَرْضِ وَمَغارِبِها بَلَغَ أَرْضَ بابِلَ، فَمَرِضَ مَرَضًا شَدِيدًا أَشْفَقَ أَنْ يَمُوتَ، فَكَتَبَ إِلَى أُمِّهِ: يا أُمّاهُ هَلْ وَجَدْتِ لِشَيْءٍ قَرارًا باقِيًا وَخَيالًا دائِمًا[١]، إِنِّي قَدْ عَلِمْتُ يَقِينًا أَنَّ الَّذِي أَذْهَبُ إِلَيْهِ خَيْرٌ مِن مَكانِي، وَفِي رِوايَةٍ أَنَّهُ كَتَبَ إِلَيْها: اصْنَعِي طَعامًا، واجْمَعِي مَنْ قَدَرْتِ عَلَيْهِ، وَلا يَأْكُلْ مِن طَعامِكِ مَنْ أُصِيبَ بِمُصِيبَةٍ، فَفَعَلَتْ فَلَمْ يَأْكُلُوا، فَعَلِمَتْ ما أَرادَ فَقالَتْ: مَنْ يُبَلِّغُكَ عَنِّي أَنَّكَ وَعَظْتَنِي فاتَّعَظْتُ، وَعَزَّيْتَنِي فَتَعَزَّيْتُ[٢]، فَعَلَيْكَ السَّلامُ حَيًّا وَمَيْتًا.

[أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه]

عن عائِشَةَ رضيَ الله عنها قالتْ: لَمّا ثَقُلَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣] قالَ: أَيُّ يَوْمٍ هَذا؟ قُلْنا: يَوْمُ الاثْنَيْنِ، قالَ: فَأَيُّ يَوْمٍ قُبِضَ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؟ قُلْنا: يَوْمَ الاثْنَيْنِ؟ قالَ: فَإِنِّي أَرْجُو ما بَيْنِي وَبَيْنَ اللَّيْلِ[٤]، قالَتْ: وَكانَ عَلَيْهِ ثَوْبٌ بِهِ رَدْعٌ مِن مِشْقٍ[٥] قالَ: إِذا أَنَا مِتُّ فاغْسِلُوا ثَوْبِي هَذا وَضُمُّوا إِلَيْهِ ثَوْبَيْنِ جَدِيدَيْنِ

---

(١) أي لا تجدِين ذلك.

(٢) أي واسَيْتَنِي في مُصِيبَتِي فخَفّ حُزني وتقوَّيتُ على الصَّبر.

(٣) أي في مرَض وَفاتِه.

(٤) أي أرجُو أن يوافِق يومُ وفاتي يومَ الاثنين الذي تُوفّي فيه رسولُ الله ﷺ.

(٥) بفتح الراء مِن «رَدْعٍ» وكسر الميم مِن «مِشْق» أي أثرٌ مِن صِبغٍ أحمرَ.

وَكَفِّنُونِي فِي ثَلاثَةِ أَثْوابٍ، فَقُلْنا: أَفَلا نَجْعَلُها جُدُدًا كُلَّها؟ قالَ: لا، إِنَّما هُوَ لِلْمُهْلَةِ(١)، فَإِنَّ الحَيَّ أَحْوَجُ إِلَى الجَدِيدِ مِن المَيِّتِ، فَماتَ لَيْلَةَ الثُّلاثاءِ.

[عمر بن الخطّاب رضي الله عنه]

لَمّا طُعِنَ عُمَرُ رضيَ الله عنه قالَ: يا ابْنَ عَبّاسٍ، انْظُرْ مَنْ قَتَلَنِي، فَجالَ ساعَةً(٢) ثُمَّ جاءَ فَقالَ: غُلامُ المُغِيرَةِ، فَقالَ: الصَّنِعُ(٣)؟ قالَ: نَعَمْ، قالَ: قاتَلَهُ اللَّهُ، لَقَدْ أَمَرْتُ بِهِ مَعْرُوفًا، الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَجْعَلْ مِيْتَتِي بِيَدِ رَجُلٍ يَدَّعِي الإِسْلامَ. فَدَخَلُوا عَلَيْهِ وَفِيهِمْ رَجُلٌ شابٌّ فَإِذَا إِزارُهُ يَمَسُّ الأَرْضَ، فَقالَ: يا ابْنَ أَخِي ارْفَعْ ثَوْبَكَ فَإِنَّهُ أَنْقَى لِثَوْبِكَ وَأَتْقَى لِرَبِّكَ(٤). يا عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ، انْطَلِقْ إِلَى عائِشَةَ أُمِّ المُؤْمِنِينَ فَقُلْ: يَقْرَأُ عَلَيْكِ عُمَرُ السَّلامَ وَلا تَقُلْ أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ فَإِنِّي لَسْتُ اليَوْمَ لِلْمُؤْمِنِينَ أَمِيرًا، وَقُلْ: يَسْتَأْذِنُ عُمَرُ أَنْ يُدْفَنَ مَعَ صاحِبَيْهِ(٥)، فَمَضَى وَجاءَ فَقالَ: أَذِنَتْ، فَقالَ: الحَمْدُ لِلَّهِ ما كانَ شَيْءٌ أَهَمَّ إِلَيَّ مِن ذَلِكَ، فَإِذا أَنا قُبِضْتُ(٦) فاحْمِلُونِي ثُمَّ سَلِّمْ(٧) وَقُلْ: يَسْتَأْذِنُ عُمَرُ، فَإِنْ أَذِنَتْ لِي فَأَدْخِلُونِي، وَإِنْ رَدَّتْنِي فَرُدُّونِي إِلَى مَقابِرِ المُسلِمِينَ.

---

(١) المُهْلة هنا القَيح وصَديد الميّت، يعني أنّ الثوب الجديد أولَى بالحيّ مِن أنْ يَصِير إلى ما يَخرُج مِن بدَن الميّت ثم يفنَى معه.

(٢) أي دارَ وذهَب في طلَب الخبَر.

(٣) الصَّنِعُ: الحاذق بالصَّنْعة.

(٤) أي أبعَدُ عن الخُيَلاءِ والكِبْرِ فتَكُون بذلكَ أقربَ إلى تَقوَى اللهِ.

(٥) يعني النَّبيَّ ﷺ وأبا بكرٍ رضي الله عنه.

(٦) أي مِتُّ.

(٧) أي على السيّدة عائشةَ رضي الله عنها.

[عثمان بن عفّانَ رضي الله عنه]

أَعْتَقَ عُثْمان بْن عَفّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عِشْرِينَ مَمْلُوكًا لَهُ وَدَعا بِسَراوِيلَ فَشَدَّها عَلَيْهِ وَلَمْ يَلْبَسْها فِي جاهِلِيَّةٍ وَلا إِسْلامٍ وَقالَ: إِنِّي رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ البارِحَةَ فِي المَنامِ وَرَأَيْتُ أَبا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَإِنَّهُمْ قالُوا: اصْبِرْ فَإِنَّكَ تُفْطِرُ عِنْدَنا القابِلَةَ[١]، ثُمَّ دَعا بِمُصْحَفٍ فَنَشَرَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ[٢]، فَقُتِلَ وَهُوَ بَيْنَ يَدَيْهِ[٣].

[عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه]

لَمّا بَلَغَ عليٌّ رضيَ الله عنه البابَ الصَّغِيرَ شَدّ عَلَيْهِ عبد الرحمن بْنُ مُلْجِمٍ فَضَرَبَهُ، قالَ: القُرَشِيُّ! ورُوِيَ أنّه لَمّا ضُرِبَ رضيَ الله عنه أَوْصَى بَنِيهِ ثُمَّ لَمْ يَنْطِقْ إِلّا بِـ«لا إِلَهَ إِلّا اللَّهُ» حَتَّى قَبَضَهُ اللَّهُ تَبارَكَ وَتَعالَى[٤].

[الحسَن بن علي رضي الله عنهما]

لَمّا احْتُضِرَ الحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ قالَ أَخْرِجُوا فِراشِي إِلَى صَحْنِ الدّارِ[٥] قالَ فَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّماءِ[٦] ثُمَّ قالَ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَحْتَسِبُ نَفْسِي عِنْدَكَ»[٧].

---

(١) أي اللَّيلةَ القادمةَ.

(٢) أي فتَحَه يقرأُ فيه.

(٣) أي استُشهِدَ رضيَ الله عنه وهو مُنشغِلٌ بتلاوةِ القرءانِ.

(٤) أي قَبَضَه ملَكُ المَوتِ بأمرِ الله تعالى.

(٥) صَحنُ الدار: ساحَتُها الواسعةُ المكشوفة في وسَطها.

(٦) لأنّها قِبلةُ الدُّعاء كما نقل الإجماع على ذلك القاضي عبد الوهاب المالكيُّ في كتابه «شرح عقيدة مالك الصغير»، ونَصَّ على أنّها كذلكَ أيضًا الحافظ النووي في «شرح مُسلِم» وكثيرٌ مِن علماء أهل السنة والجماعة، وليس ذلكَ لِوُجودِ الله تعالى فيها، فالله عزّ وجلّ موجودٌ بلا مكانٍ ولا جِهةٍ.

(٧) أي أرجُو مِن الله الأجرَ والثوابَ على صَبرِي على فَقْد نَفْسِي.

[سالمٌ مولَى أبي حُذَيفة رضي الله عنه]

حَضَرَ سالِمٌ يَوْمَ اليَمامَةِ(١) فَأَخَذَ اللِّواءَ بِيَمِينِهِ فَقُطِعَتْ ثُمَّ شالَهُ بِشِمالِهِ(٢) فَقُطِعَتْ ثُمَّ اعْتَنَقَه(٣) وَجَعَلَ يَقْرَأُ ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ﴾ إِلَى أَنْ قُتِلَ.

[عُمَيرُ بنُ أَبِي وقّاصٍ رضي الله عنه]

قال سَعدُ بنُ أبي وَقّاصٍ رضيَ الله عنه: رَأَيْتُ أَخِي عُمَيْرَ بْنَ أَبِي وَقّاصٍ قَبْلَ أَنْ يَعْرِضَنا رَسُولُ اللَّهِ(٤) ﷺ لِلْخُرُوجِ إِلَى بَدْرٍ يَتوارَى(٥)، فَقُلْتُ: ما لَكَ يا أَخِي؟ فَقالَ: إِنِّي أَخافُ أَنْ يَرانِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فيَسْتَصْغِرَنِي(٦) فَيَرُدَّنِي، وَأَنا أُحِبُّ الخُرُوجَ(٧) لَعَلَّ اللَّهَ يَرْزُقُنِي الشَّهادَةَ، قالَ: فَعُرِضَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فاسْتَصْغَرَهُ فَقالَ: «**ارْجِعْ**»، فَبَكَى عُمَيْرٌ فَأَجازَهُ رَسُولُ اللَّهِ(٨) ﷺ. قالَ سَعْدٌ: فَكُنْتُ أَعْقِدُ لَهُ

---

(١) هو يوم المعركة الّتي وقعت سنة ١١هـ في خلافة أبي بكر رضي الله عنه بين المسلمين وأتباع مُسَيلِمة الكذّاب مُدَّعِي النُّبوّةِ، وانتهَت بِمقتَل مُسَيلِمة وهَزِيمةِ أتباعِه.

(٢) أي رفعَه وحمَلَه بها.

(٣) أي ضَمَّ اللِّواءَ إلى صَدرِه وأمسَكَه بِعَضُدَيه بعد قَطع يَديه.

(٤) أي يَنظُر في أمرِهم هل بَلَغُوا مَبلَغًا يُؤهِّلُهم للخرُوج في الجهادِ أم لا.

(٥) أي يَتخفَّى.

(٦) أي يَعُدَّنِي صَغِيرًا.

(٧) أي في الجِهادِ معَ جَيشِ المُسلِمِين.

(٨) ولعلَّه رَدَّه أوّلًا لِمَا يَظهَر مِن صِغَرِ سِنِّهِ ثُمّ ظَهَرَ مِنهُ أهلِيّةُ الخُروجِ فأَذِنَ له.

حَمائِلَ سَيْفِهِ[١] مِن صِغَرِهِ، فَقُتِلَ بِبَدْرٍ وَهُوَ ابْنُ سِتَّ عَشَرَةَ سَنَةً قَتَلَهُ عَمْرُو بْنُ عَبْدِ وُدٍّ[٢][٣].

[عامر بن فُهَيرة رضي الله عنه]

رُوِيَ أَنَّ جَبّارَ بْنَ سُلْمَى الكَلْبِيَّ طَعَنَ عامِرَ بْنَ فُهَيْرَةَ يَوْم بِئْر مَعُونَة فأَنْفَذَهُ[٤] فَقالَ عامِر: «فُزْتُ واللَّهِ وَرَبِّ الكَعْبَةِ».

[بلال بن رَباح رضي الله عنه]

حِينَ حَضَرَتِ الوَفاةُ بِلالًا رضيَ الله عنه قال: «غَدًا نَلْقَى الأَحِبَّةَ، مُحَمَّدًا وَحِزْبَهُ»، قالَتِ امْرَأَتهُ: وا بِلالاهُ، فَقال: «وا فَرَحاهُ».

[عبد الله بن رَواحة رضي الله عنه]

لَمّا خَرَجَ المُسلِمُون إِلَى مُؤْتَةَ نَزَلُوا أَرْضَ الشّامِ، فَبَلَغَهُمْ أَنَّ هِرَقْلَ قد نَزَلَ مِن أَرْضِ البَلْقاءِ فِي مِائَةِ أَلْفٍ مِن الرُّومِ وانْضَمَّتْ إِلَيْهِ قَبائِلُ مِن المُسْتَعْرِبَةِ فِي مِائَةِ أَلْفٍ، فَأَقامُوا لَيْلَتَيْنِ يَنْظُرُونَ فِي أَمْرِهِمْ وَقالُوا: نَكْتُبُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَنُخْبِرُهُ بِعَدَدِ عَدُوِّنا، فَشَجَّعَ عبدُ اللهِ بْنُ رَواحَةَ النّاسَ ثُمَّ قالَ: واللَّهِ يا قَوْمِ إِنَّ الَّذِي

(١) حَمائِلُ السَّيف: السُّيُور التي يُعلَّق بها السَّيفُ على العاتِق.

(٢) كان أحدَ قادَةِ المشركين في غزوةِ الأحزاب، فقتَله عليٌّ رضي الله عنه.

(٣) أخرجه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (١٤٩/٣–١٥٠)، في ترجمة عُمير بن أبي وقّاص.

(٤) أي جاوزَه بالرُّمح وخَرَق جسَده.

تَكْرَهُونَ لِلَّذِي خَرَجْتُمْ لَهُ، تَطْلُبُونَ الشَّهادَةَ، وَما نُقاتِلُ العَدُوَّ بِعُدَّةٍ وَلا قُوَّةٍ وَلا كَثْرَةٍ، ما نُقاتِلُهُمْ إِلّا بِهَذا الدِّينِ الَّذِي أَكْرَمَنا اللَّهُ تَعالَى بِهِ، فانْطَلِقُوا فَإِنَّما هِيَ إِحْدَى الحُسْنَيَيْنِ إِمّا ظُهُورٌ[١] وَإِمّا شَهادَةٌ، فَقالَ النّاسُ: قَدْ واللَّهِ صَدَقَ ابْنُ رَواحَةَ، فَمَضوا.

ولَمّا وَقَعَ الالتِحامُ قامَ عبدُ اللهِ وقالَ: يا نَفْسُ، إِلَى أَيِّ شَيْءٍ تَتُوقِينَ؟ إِلَى فُلانَةَ؟! - يَعنِي زَوجتَه - وَإِلَى فُلانٍ وَإِلَى فُلانٍ؟! - غِلْمانٍ لَهُ - وَإِلَى مِعْجَفٍ؟! حائِطٍ لَهُ[٢]، فتَقَدَّمَ وقاتَلَ فَأُصِيبَتْ إِصْبَعُهُ فارْتَجَزَ[٣] فَجَعَلَ يَقُولُ:

هَلْ[٤] أَنْتِ إِلّا إِصْبَعٌ دَمِيتِ ... وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ ما لَقِيتِ[٥]

يا نَفْسُ إِنْ لا تُقْتَلِي تَمُوتِي ... هَذَا حِياضُ المَوْتِ[٦] قَدْ صَلِيتِ[٧]

وَما تَمَنَّيْتِ[٨] فَقَدْ لَقِيتِ ... إِنْ تَفْعَلِي فِعْلَهُما[٩] هُدِيتِ[١٠]

وَإِنْ تَأَخَّرْتِ فَقَدْ شَقِيتِ

---

(١) أي غلَبةٌ على العَدُوّ.

(٢) أي بُستانٍ.

(٣) أي أنشَد شِعرَ الرَّجَز.

(٤) هي بمعنى النَّفي، أي ما أنتِ إلّا كذا.

(٥) أي والّذي أصابَكِ كان في سبيلِ اللهِ.

(٦) يُروَى: «حِمامُ المَوت» أيضًا.

(٧) أي إنْ لم تُقتَلِي في الجهاد فالموتُ نازِلٌ بك بغَير ذلك، وهذا مَوطِنُ الموتِ في سبيلِ اللهِ قَد دخَلْتِه.

(٨) وهو الموتُ في سَبِيل اللهِ.

(٩) يعني زَيدَ بن حارثةَ وجعفرَ بنَ أبي طالب رضي الله عنهما، وذلك أنّه لَمّا التحَمَ القِتال في مُؤْتة تقدَّم بالراية زيدٌ، فقاتَل حتّى أصابتْه الرِّماحُ فقُتِلَ، فأخَذ الرايةَ جعفرٌ وقاتَل حتّى قُتِل.

(١٠) يُروَى: «هَنِيتِ» أيضًا.

وقاتَلَ رضيَ الله عنه حتّى قُتِلَ.

[عُمَير بن الحُمام رضي الله عنه]

صحَّ أنّه لَمّا دَنَا الْمُشْرِكُونَ يومَ بَدرٍ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِلمُسلمِين: «**قُومُوا إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ**»، فقالَ عُمَيْرُ بْنُ الْحُمَامِ: يَا رَسُولَ اللهِ، جَنَّةٌ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ؟ قَالَ: «**نَعَمْ**»، فَقالَ عُمَيْرٌ: بَخٍ بَخٍ[١]، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا يَحْمِلُكَ عَلَى قَوْلِكَ بَخٍ بَخٍ؟**» قَالَ: لَا وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ إِلَّا رَجَاءَةَ أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِهَا، قَالَ: «**فَإِنَّكَ مِنْ أَهْلِهَا**»، فَأَخْرَجَ عُمَيرٌ تَمَرَاتٍ مِنْ قَرَنِهِ[٢] فَجَعَلَ يَأْكُلُ مِنْهُنَّ، ثُمَّ قَالَ: لَئِنْ أَنَا حَيِيْتُ حَتَّى ءاكُلَ تَمَرَاتِي هَذِهِ إِنَّهَا لَحَيَاةٌ طَوِيلَةٌ، فَرَمَى بِمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ التَّمْرِ ثُمَّ قَاتَلَهُمْ حَتَّى قُتِلَ[٣].

[معاذ بن جبَل رضي الله عنه]

لَمّا أُصِيبَ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الجَرّاحِ فِي طاعُونِ عَمَواسَ[٤] اسْتَخْلَفَ مُعاذَ بْنَ جَبَلٍ، فَطُعِنَ ابْناهُ[٥]، فَقالَ كَيْفَ تَجِدانِكُمَا؟ قالا: يا أَبانَا، الحَقُّ مِن رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ

(١) كَلِمةٌ تُقال عند المدحِ والرِّضى والإعجابِ وتُكرَّر للمُبالغة.

(٢) القَرْنُ جَعْبةٌ صغيرةٌ للسِّهام.

(٣) أخرجه مسلم في «صحيحه»، كتاب الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد، (١٩٠١)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٤) بفتح الميم ويُروى تَسكِينُها، وعَمَواسُ قريةٌ مِن بلاد الشام ظهَر فيها الطاعونُ أوّلَ الأمرِ زمنَ عمرَ رضي الله عنه نحو سنة ١٨هـ. مات فيه خلقٌ كثيرٌ مِن المسلمين، منهم أبو عُبيدة بنُ الجرّاح ومعاذُ بن جبل رضي الله عنهما.

(٥) أي أُصيبَ ولَدا مُعاذٍ بالطّاعونِ.

مِن المُمْتَرِينَ، قالَ: سَتَجِدانِي إِنْ شاءَ اللَّهُ مِن الصّابِرِينَ، ثُمَّ طُعِنَتِ امْرَأَتاهُ فَهَلَكَتا[١]، وَطُعِنَ هُوَ فِي إِبْهامِهِ[٢] فَجَعَلَ يَمَصُّها بِفِيهِ ويَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنَّها صَغِيرَةٌ فَبارِكْ فِيهَا[٣]، فَإِنَّكَ تُبارِكُ فِي الصَّغِيرِ، فَمَاتَ مِن ذَلِكَ. وكانَ قد نُزِعَ نَزْعًا شَدِيدًا[٤] وكُلَّما أَفاقَ مِن غَمْرَةٍ[٥] فَتَحَ طَرْفَهُ[٦] ثُمَّ قالَ: إِنَّكَ لَتَعْلَمُ أَنَّ قَلْبِي يُحِبُّكَ، مَرْحَبًا بِالمَوْتِ زائِرٌ مُغِبٌّ[٧]، حَبِيبٌ جاءَ عَلَى فاقَةٍ[٨]، اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ أُحِبُّ الدُّنْيا وَطُول البَقاءِ فِيها لِجَرْيِ الأَنْهارِ وَلا لِغَرْسِ الأَشْجارِ وَلَكِنْ لِظَمَإِ الهَواجِرِ[٩] وَمُكابَدَةِ السّاعاتِ[١٠] وَمُزاحَمَةِ العُلَماءِ بِالرُّكَبِ عِنْدَ حِلَقِ الذِّكْرِ.

[سَلمان الفارِسي رضي الله عنه]

لَمّا حَضَرَ سَلْمانَ المَوْتُ دَعا امرأَتَه وَهُوَ فِي عِلِّيّةٍ[١١] لَها أَرْبَعَةُ أَبْوابٍ فَقالَ: افْتَحِي هَذِهِ الأَبْوابَ، فَإِنِّي لِيَ اليَوْمَ زُوّارٌ لا أَدْرِي مِن أَيِّ هَذِهِ الأَبْوابِ يَدْخُلُونَ عَلَيَّ، ثُمَّ

(١) أي ماتَتا.

(٢) أي ظَهَر مِن أثَرِ الطّاعون قُرحة في إصبعِه.

(٣) أي نَمِّها وَزِدها.

(٤) أي اشتدَّتْ عليه سَكَراتُ الموتِ.

(٥) أي غَشْية مِن غَشياتِ سَكَراتِ الموتِ.

(٦) أي بصَرَه.

(٧) أي زائِرٌ جاء بعد غيابٍ وطُولِ عَهدٍ، وأصلُ الغِبِّ أن يَرِدَ يَومًا ويَترُكَ يومًا.

(٨) أي جاء عند شِدّة الاشتياق إليه.

(٩) أي الظَّمأ مِن الصَّومِ في شِدّة حَرِّ منتصَف النهار.

(١٠) أي تحمُّل مشَقّة ساعات الليل في القيامِ والعبادة.

(١١) العُلِّيَّة بضمّ العين وتشديد الياء، ويجوز كسر العين أيضًا العِلِّيَّة؛ وهي الغرفةُ المُرتفِعة.

دَعَا بِمِسْكٍ لَهُ ثُمَّ قالَ: أَدِيفِيهِ فِي تَوْرٍ[١]، فَفَعَلَتْ، ثُمَّ قالَ: انْضَحِيهِ[٢] حَوْلَ فِراشِي ثُمَّ انْزِلِي وامْكُثِي فَسَوْفَ تَطَّلِعِينَ فَتَرَيْنِي عَلَى فِراشِي، فاطَّلَعَتْ فَإِذا هُوَ قَدْ ماتَ.

[حُذيفة بن اليَمان رضي الله عنه]

دَخَلَ رَجُلٌ عَلَى حُذَيْفَةَ رضيَ الله عنه فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ فسَمِعَ حُذَيفةَ يَقولُ: لَوْلا أَنِّي أَرَى[٣] أَنَّ هَذا اليَوْمَ ءاخِرُ يَوْمٍ مِن أَيّامِ الدُّنْيا[٤] وَأَوَّلُ يَوْمٍ مِن أَيّامِ الآخِرَةِ لَمْ أَتَكَلَّمْ بِهَذا، اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي كُنْتُ أُحِبُّ الفَقْرَ عَلَى الغِنَى، وَأُحِبُّ الذِّلَّةَ عَلَى العِزِّ، وَأُحِبُّ المَوْتَ عَلَى الحَياةِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ صَبَاحِ النَّارِ[٥].

[خُبَيب بنُ عَدِيّ رضي الله عنه]

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: بَعَثَ رَسُول اللَّهِ ﷺ عَشَرةً عَيْنًا[٦] فَأُسِرَ مِنْهُمْ خُبَيْبٌ، فَلَمَّا خَرَجُوا بِهِ لِيَقْتُلُوهُ قَالَ: دَعُونِي أُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ، قالَ: واللَّهِ لَوْلا أَنْ تَحْسَبُوا أَنَّ مَا بِي جَزَعٌ لَزِدْتُ[٧] وَقالَ:

---

(١) أي اخلُطِيه وأَذِيبيه بالماء في إناءٍ صَغيرٍ.

(٢) أي رُشِّيه رشًّا خفيفًا.

(٣) أي أظنُّ وأشعُر.

(٤) أي دُنيايَ.

(٥) أي مِن أنْ أدخُلَ في الصَّباحِ مَيِّتًا مُعَذَّبًا.

(٦) أي رِجالًا يَستطلِعُون أخبارَ الكافِرين ويَتجسَّسُون.

(٧) أي لولا أن تَظُنُّوا أنّ بِي خَوفًا منكم لزِدتُ.

فَلَسْتُ أُبالِي حِينَ أُقْتَلُ مُسْلِمًا عَلَى أَيِّ جَنْبٍ كانَ فِي اللَّهِ مَصْرَعِي[١]
وَذَلِكَ فِي ذاتِ الإِلَهِ[٢] وَإِنْ يَشَأْ يُبارِكْ عَلَى أَوْصالِ شِلْوٍ مُمَزَّعِ[٣]

ثُمَّ قَتَلُوهُ.

قَالَ سَعِيدُ بْنُ عَامِرِ بْنِ جُذَيْمٍ: شَهِدْتُ مَصْرَعَ خُبَيْبٍ وَقَدْ بَضَعَتْ قُرَيْشٌ لَحْمَهُ[٤] ثُمَّ حَمَلُوهُ عَلَى جِذْعَةٍ[٥] فَقالُوا: أَتُحِبُّ أَنَّ مُحَمَّدًا مَكانَكَ؟ فَقالَ: واللَّهِ ما أُحِبُّ أَنِّي فِي أَهْلِي وَوَلَدِي وَأَنَّ مُحَمَّدًا شِيْكَ بِشَوْكَةٍ، ثُمَّ نادَى: يا مُحَمَّدُ[٦].

[أبو الدَّرْداء رضي الله عنه]

عَادَ أَبُو مُسْلِمٍ الْخَوْلَانِيُّ أَبا الدَّرْداءِ[٧] رضيَ الله عنه وَهُوَ يَجُودُ بِنَفْسِهِ[٨] فَقالَ: أَلَا رَجُلٌ يَعْمَلُ لِمِثْلِ مَصْرَعِي هَذا، أَلا رَجُلٌ يَعْمَلُ لِمِثْلِ يَوْمِي هَذا، أَلا رَجُلٌ يَعْمَلُ لِمِثْلِ ساعَتِي هَذِهِ، ثُمَّ قُبِضَ.

---

(١) أي لا أبالي على أيِّ جانبَيَّ أسقُط قَتِيلًا ما دام مَصرَعِي في سبيل اللهِ وابتِغاءَ مَرضاتِه.

(٢) أي في مرضاة الله.

(٣) أي أنّ قِتالَه في سبيل الله، فإنْ يَشأ اللهُ يُبارِكْ جَسَدَه وإنْ صار أشلاءً مُمزَّقةً، أي يُكرِمه بالشَّهادة والأَجر، ولو تفرَّق جسَدُه.

(٤) أي قَطَعَتْه وشَقَّتْه.

(٥) أي وضَعُوه على قطعةٍ مِن جِذع شجَرة وحمَلُوه عليها.

(٦) في هذا دلالةٌ واضحةٌ على جواز التوسُّل بالنّبيّ ﷺ في غيرِ حُضورِه، وهو مذهبُ المسلمين قاطبةً.

(٧) أي زارَه في مرَضِ وَفاتِه.

(٨) أي يُساقُ إلى الموت.

[خالد بن الوليد رضي الله عنه]

لَمّا حَضَرَتْ خالِدَ بْنَ الوَلِيدِ الوَفاةُ قالَ: لَقَيْتُ كَذا وَكَذا زَحْفًا، وَما فِي جَسَدِي شِبْرٌ إِلّا وَفِيهِ ضَرْبَةٌ بِسَيْفٍ أَوْ رَمْيَةٌ بِسَهْمٍ أَوْ طَعْنَة بِرُمْحٍ، وَها أَنا أَمُوتُ عَلَى فِراشِي حَتْفَ أَنْفِي[1]، فَلا نامَتْ عَيْنُ الجُبَناءِ.

[حَرام بن مِلْحان رضي الله عنه]

لَمّا بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَرامًا خالَهُ أَخَا أُمِّ سُلَيْمٍ يَوْمَ بِئْرِ مَعُونَةَ قالَ لَهُمْ حَرامٌ: تُؤَمِّنُونِي أُبَلِّغكُمْ رِسالةَ رَسُول اللَّهِ ﷺ إِلَيْكُمْ، قالُوا: نَعَمْ، فَجَعَلَ يُحَدِّثهُمْ وأَوْمَؤُوا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ مِن خَلْفِهِ فَطَعَنَهُ حَتَّى أَنْفَذَهُ بِالرُّمْحِ، فَقالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ، فُزْتُ وَرَبِّ الكَعْبَةِ.

[أبو هريرة رضي الله عنه]

دَخَلَ مَروانُ عَلَى أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي شَكْواهُ الَّتِي ماتَ فِيهَا فَقالَ: شَفاكَ اللَّهُ، فَقالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أُحِبُّ لِقاءَكَ فَأَحِبَّ لِقائِي[2]، فَما بَلَغَ مَروانُ أَصْحابَ القَطَا حَتَّى ماتَ رَحِمَهُ اللَّهُ.

[أنس بن مالك رضي الله عنه]

قالَ أَنَسُ بْنُ سِيرِينَ: شَهِدْتُ أَنَسَ بْنَ مالِكٍ رضيَ الله عنه وَحَضَرَهُ المَماتُ، فَجَعَلَ يَقُولُ: لَقِّنُونِي لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ، فَلَمْ يَزَلْ يَقُولُها حَتَّى قُبِضَ رَحِمَهُ اللَّهُ.

---

(١) أي ماتَ على فراشِه مِن غير قتلٍ ولا ضربٍ.

(٢) أي أُحِبُّ لِقاءَ ثَوابِكَ وتَلَقِّي رِضاكَ عَنِّي فارْضَ عَنِّي.

[عَلْقَمة بن قَيس رحمه الله]

قال عَلْقَمَة وهو يُوصِي: لا تَنْعُونِي كَنَعْيِ الجاهِلِيَّةِ، وَلا تُؤْذِنُوا بِي أَحَدًا، وَأَغْلِقُوا الأَبْوابَ، وَلا تَتَّبِعنِي امْرَأَةٌ، وَلا تُتْبِعُونِي بِنارٍ، وَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ يَكُونَ ءاخِر كَلامِي «لا إِلَه إِلّا الله» فَافَعَلُوا.

[الحسَن البصري رحمه الله]

لَمّا حَضَرَ الحسَنَ المَوْتُ دَخَلَ عَلَيْهِ رِجالٌ مِن أَصْحابِهِ فَقالُوا: زَوِّدْنا مِنْكَ كَلِماتٍ يَنْفَعنا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِنَّ، قالَ: إِنِّي مُزَوِّدُكُمْ ثَلاثَ كَلِماتٍ ثُمَّ قُومُوا وَدَعُونِي لِمَا تَوَجَّهْتُ لَهُ[1]؛ ما نُهِيتُمْ عَنْهُ مِن أَمْرٍ فَكُونُوا مِن أَتْرَكِ النّاسِ لَهُ، وَما أُمِرْتُمْ بِهِ مِن مَعْرُوفٍ فَكُونُوا مِن أَعْمَلِ النّاسِ بِهِ، واعْلَمُوا أَنَّ خُطاكُمْ خُطْوَةٌ لَكُمْ وَخُطْوَةٌ عَلَيْكُمْ، فانْظُرُوا أَيْنَ تَغْدُونَ[2] وَأَيْنَ تَرُوحُونَ.

وكانَ الحَسَنُ يُغْمَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُفِيقُ وَيَقُولُ: صَبْرًا واحْتِسابًا وَتَسْلِيمًا لأَمْرِ اللَّهِ، حَتَّى قُبِضَ رَحِمَهُ اللَّهُ.

[عبد الله بن المبارَك رحمه الله]

سَمِعْتُ ابْنَ المُبارَكِ حِينَ حَضَرَتْهُ الوَفاةُ وَأَقْبَلَ نُصَيْرٌ يَقُولُ لَهُ: يا أَبا عبد الرحمن قُلْ: لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ، فَقالَ: يا نُصَيْرُ قَدْ تَرَى مَقْدِرَةَ الكَلامِ، فَإِذا سَمِعْتَنِي قَدْ قُلْتُها فَلا تُرَدِّدْها حَتَّى تَسْمَعَنِي قَدْ أَحْدَثْتُ بَعْدَها كَلامًا فَإِنَّما كانُوا يَسْتَحِبُّونَ أَنْ يَكُونَ ءاخِر كَلامِ العَبْدِ ذَلِكَ.

---

(١) أي اتركُونِي أمْضِ لِشأنِي.

(٢) أي تَذهبُون.

[الرَّبيع بن خُثَيم رحمه الله]

لَمّا احْتُضِرَ الرَّبِيعُ بَكَتِ ابْنَتُهُ فَقَالَ: يَا بُنَيَّةُ، لَا تَبْكِي، وَلَكِنْ قُولِي: يَا بُشْرَى الْيَوْمَ لَقِيَ أَبِي الْخَيْرَ.

[ءادم بن أبي إياس رحمه الله]

لَمّا حَضَرَتْ ءادَمَ بْنَ أَبِي إِياسٍ الوَفاةُ خَتَمَ القُرْءانَ وَهُوَ مُسَجًّى[١] ثُمَّ قالَ: بِحُبِّي لَكَ إِلّا رَفَقْتَ بِي فِي هَذا المَصْرَعِ، كُنْتُ أُؤَمِّلُكَ لِهَذا اليَوْمِ، كُنْتُ أَرْجُوكَ، ثُمَّ قالَ: لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ، ثُمَّ قَضَى.

[أحمد بن حنبل رحمه الله]

قال أحمَدُ لابْنِه صالِحٍ: جِئْنِي بِالكِتابِ الَّذِي فِيهِ حَدِيثُ ابْنِ إِدْرِيسَ عَنْ لَيْثٍ عَنْ طاوُوس أَنَّهُ كانَ يَكْرَهُ الأَنِينَ[٢]، فَقَرَأْتُهُ عَلَيْهِ فَلَمْ يَئِنَّ إِلّا فِي اللَّيْلَةِ الَّتِي تُوُفِّيَ فِيها.

وقال عبدُ اللهُ بنُ أحمدَ: لَمّا حَضَرَتْ أَبِي الوَفاةُ جَلَسْتُ عِنْدَهُ وَبِيَدِي الخِرْقَةُ لأَشُدَّ بِها لِحْيَيْهِ[٣]، فَجَعَلَ يَعْرَقُ ثُمَّ يُفِيقُ ثُمَّ يَفْتَحُ عَيْنَيْهِ وَيَقُولُ بِيَدِهِ هَكَذا[٤]: لا بَعْدُ، فَفَعَلَ هَذا مَرَّةً وَثانِيَةً فَلَمّا كانَ فِي الثّالِثَة قُلْتُ لَهُ: يا أَبَهْ أَيُّ شَيْءٍ هَذا؟ قَدْ لَهَجْتَ بِهِ[٥] فِي هَذا الوَقْتِ تَعْرَقُ حَتَّى نَقُولَ قَدْ قُبِضْتَ، ثُمَّ تَعُودُ فَتَقُولُ: لا لا بَعْدُ، فَقالَ

---

(١) أي مُغطًّى بِثَوب.

(٢) سبَق تفصيلُه عند العلَماء في فصل «تَرْك الشَّكوى ومبادَرة العمَل».

(٣) حتّى لا يَنفتح فَمُه بعد الموت، واللَّحيان عَظْما الفَكَّين.

(٤) أي يُشيرُ بها مع قولِه ما ذُكِرَ.

(٥) أي لازمتَ تَردادَه.

لِي: يا بُنَيَّ، ما تَدْرِي؟ قُلْتُ: لا، قالَ: إِبْلِيسُ لَعَنَهُ اللَّهُ قائِمٌ حِذائِي[١] عاضٌّ عَلَى أَنامِلِهِ يَقُولُ لِي: يا أَحْمَدُ فُتَّنِي، فَأَقُولُ لَهُ: لا بَعْدُ حَتَّى أَمُوتَ[٢].

[أبو زُرعة الرازيّ رحمه الله]

قالَ أَبُو جَعْفَرٍ التُّسْتَرِيُّ: حَضَرْنا أَبا زُرْعَةَ وَكانَ فِي السَّوْقِ[٣] وَعِنْدَهُ أَبُو حاتِمٍ وَمُحَمَّدُ بْنُ مُسْلِمٍ والمُنْذِرُ بنُ شاذانَ وَجَماعَةٌ مِن العُلَماءِ، فَذَكَرُوا حَدِيثَ التَّلْقِينِ وَقَوْلَهُ عَلَيْهِ السَّلامُ: «**لَقِّنُوا مَوْتاكُمْ لا إِلَهَ إِلّا اللَّهُ**»[٤] فاسْتَحْيَوْا مِن أَبِي زُرْعَةَ وَهابُوا أَنْ يُلَقِّنُوهُ فَقالُوا: تَعالَوا نَذْكُر الحَدِيثَ، فَقالَ مُحَمَّدُ بْنُ مُسْلِمٍ: حَدَّثَنا الضَّحّاكُ بْنُ مَخْلَدٍ عَن عَبدِ الحَمِيدِ بْنِ جَعْفَرٍ عَنْ صالِحٍ وَلَمْ يُجاوِزْ والباقُونَ سُكُوتٌ، فَقالَ أَبُو زُرْعَةَ وَهُوَ فِي السَّوْقِ: حَدَّثَنا بُنْدارٌ قالَ حَدَّثَنا أَبُو عاصِمٍ قالَ حَدَّثَنا عَبدُ الحَمِيدِ بنُ جَعْفَرٍ عَن صَالِحٍ عَن أَبِي عَرِيْبٍ عَنْ كَثِيرِ بْنِ مُرَّةَ الحَضْرَمِيِّ عَنْ مُعاذِ بْنِ جَبَلٍ رضيَ الله عنه قالَ: قالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَنْ كانَ ءاخِرَ كَلامِهِ لا إِلَهَ إِلّا اللَّهُ دَخَلَ الجَنَّةَ**»[٥] وَتُوُفِّيَ رَحِمَهُ اللَّهُ.

[محمد بن أسلَمَ الطُّوسِيّ رحمه الله]

قالَ مُحَمَّدُ بْنُ الْقَاسِمِ خَادِمُ ابْنِ أَسْلَمَ: دَخَلْتُ عَلَيْهِ قَبْلَ مَوْتِهِ بِأَرْبَعَةِ أَيّامٍ فَقالَ:

---

(١) أي بإزائي.

(٢) يعني أفلَتَّ مِنّي ونجَوتَ، فردَّ علَيه بأنّه لا يأْمَنُه حتّى يَموت ناجيًا منه.

(٣) أي في سِياقِ المَوتِ.

(٤) سبق تخريجه.

(٥) سبَق تخريجه.

تَعالَ أُبَشِّرْكَ بِما صَنَعَ اللَّهُ بِأَخِيكَ مِن الخَيْرِ، قَدْ نَزَلَ بِيَ المَوْتُ وَقَدْ مَنَّ اللَّهُ تَعالَى عَلَيَّ أَنَّهُ لَيْسَ عِنْدِي دِرْهَمٌ يُحاسِبُنِي عَلَيْهِ، أَغْلِقِ البابَ وَلا تَأْذَنْ لأَحَدٍ عَلَيَّ حَتَّى أَمُوتَ، واعْلَمْ أَنِّي أَخْرُجُ مِن الدُّنْيا وَلَيْسَ أَدَعُ مِيراثًا غَيْرَ كِسائِي وَلِبْدِي[١] وَإِنائِي الَّذِي أَتَوَضَّأُ فِيهِ وَكُتُبِي هَذِهِ، وَكانَتْ مَعَهُ صُرَّةٌ فِيها نَحْوُ ثَلاثِينَ دِرْهَمًا فَقالَ: هَذِه لابْنِي أَهْداهَا لَهُ قَرِيبٌ لَهُ، وَلا أَعْلَمُ شَيْئًا أَحَلَّ لِي مِنْهُ، لأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قالَ: «**أَنْتَ وَمالُكَ لأَبِيكَ**[٢]»[٣]، فَكَفِّنُونِي مِنْهَا، فَإِذا أَصَبْتُمْ لِي بِعَشْرَةِ دَراهِمَ ما يَسْتُرُ عَوْرَتِي فَلا تَشْتَرُوا بِخَمْسَةَ عَشَرَ، وابْسُطُوا عَلَى جِنازَتِي لِبْدِي وَغَطُّوا عَلَيَّ بِكِسائِي، وَتَصَدَّقُوا بِإِنائِي أَعْطُوهُ مِسْكِينًا يَتَوَضَّأُ فِيهِ ثُمَّ ماتَ فِي اليَوْمِ الرّابِعِ.

[أبو بكر الشبلي رحمه الله]

كانَ جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ الدِّيْنَوَرِيُّ يَخْدُمُ الشِّبْلِيَّ، فَقِيلَ لَهُ: ما الَّذِي رَأَيْتَ مِنْهُ عِنْدَ وَفاتِهِ؟ فَقالَ: قالَ: عَلَيَّ دِرْهَمٌ مَظْلَمَة[٤] قَدْ تَصَدَّقْتُ عَنْ صاحِبِهِ بِأُلُوفٍ فَما عَلَى قَلْبِي شُغْلٌ أَعْظَمُ مِنْهُ، ثُمَّ قالَ: وَضِّئْنِي لِلصَّلاةِ، فَفَعَلْتُ، فَنَسِيتُ تَخْلِيلَ لِحْيَتِهِ وَقَدْ أُمْسِكَ عَلَى لِسانِهِ[٥] فَقَبَضَ عَلَى يَدِي وَأَدْخَلَها فِي لِحْيَتِهِ ثُمَّ ماتَ، فَبَكَى جَعْفَرٌ وَقالَ: ما تَقُولُونَ فِي رَجُلٍ لَمْ يَفُتْهُ فِي ءاخِرِ عُمْرِهِ أَدَبٌ مِن ءادابِ الشَّرِيعَةِ.

---

(١) اللِّبْد: كِساءٌ مِن صُوفٍ أو شعَرٍ مُتَلبِّد.

(٢) معناه أنّ الوالد له حَقٌّ في مال ولَدِه إن كان محتاجًا، حتى قال الفقهاء: يجبُ على الابنِ تَزويجُ أَبِيه إنْ كان محتاجًا وأراد ذلك، ليس معناه أنّه يأخُذ كلَّ ما لِوَلَدِه.

(٣) أخرجه ابن ماجه في «السنن»، كتاب التجارات، باب ما للرجل من مال ولده، (٢٢٩١).

(٤) أي دِرهمٌ ثَبَت في ذِمَّتِه بسبَبِ ظُلمٍ لِغَيره.

(٥) أي عن الكَلامِ.

[أبو بكر بن حبيب رحمه الله]

سَمِعَ الحَدِيثَ وَتَفَقَّهَ وَكَانَ يُدَرِّسُ وَيَعِظُ وَكَانَ نِعْمَ المُؤَدِّبُ فَلَمّا احْتُضِرَ قالَ لَهُ أَصْحابُهُ: أَوْصِنا، فَقالَ: أُوصِيكُمْ بِثَلاثٍ؛ بِتَقْوَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَمُراقَبَتِهِ فِي الخَلْوَةِ(١)، واحْذَرُوا مَصْرَعِي هَذا(٢) فَقَدْ عِشْتُ إِحْدَى وَسِتِّينَ سَنَةً وَما كَأَنِّي رَأَيْتُ الدُّنْيا.

[عبد الوهّاب الأنْماطي رحمه الله]

دَخَلْتُ عَلَيْهِ فِي مَرَضِهِ وَقَدْ ضَنِيَ جِسْمُهُ(٣) وَهُوَ ساكِنٌ صابِرٌ فَقالَ لِي: إِنَّ اللَّهَ لا يُتَّهَمُ فِي قَضائِهِ(٤).

[أبو الوقتِ عبدُ الأوّل رحمه الله]

كانَ صالِحًا كَثِيرَ الذِّكْرِ، قال أبُو عبد الله التَّكْرِيتِيّ: لمّا احْتُضِرَ عبدُ الأوّلِ أَسْنَدْتُهُ إِلَيَّ فَكانَ ءاخِر كَلِمَةٍ قالَها: ﴿قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ۝٢٦ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾.

---

(١) المراقبةُ للهِ معناها استِدامةُ الخَوفِ من الله تعالى بالقَلبِ بتجَنُّب ما حَرَّمَه الله وتجنُّبِ الغَفلةِ عن أداءِ ما أوجَبَه الله.

(٢) أي احذَرُوا حِينَ تَصِيرُون إلى وَقتِ الاحتضارِ.

(٣) أي هَزُلَ مِن المرَض وضَعُفَ.

(٤) معناه أنّ الله تعالى منزَّهٌ عن الظُّلم في قضائه، فلا يُظَنُّ به أنّه قضَى على عبده ظُلمًا أو عبَثًا، بل قضاؤه تعالى عَدلٌ، وإنْ خَفِيَ وجهُ الحكمة على العبد. فيجبُ على العبد أنْ يُحسِن الظنَّ بربِّه ويَنقاد له ولا يعترِضَ عليه، فالاعتراضُ على الله تعالى كُفرٌ، والعياذُ بالله.

خاتمة ووصيّة[١]

هذا ءاخرُ ما قصَدْنا إلى اختصارِه مِن جمعِ الحافظ ابن الجوزيّ رحمه الله في أخبار الثابتين عند الممات، وأحوالِ الصالحين ساعةَ الفِراق، جعَلْناه تذكرةً للغافل، وتبصِرةً للعاقل، ودليلًا على أنّ الخاتمة ثمَرةُ الحياة، فالسَّعِيد مَن أصلَح أيّامه قَبل انقضائها، وتدارَك ساعاتِه قبل استِرجاعِها، وجعَل لِكُلِّ نَفَسٍ زادًا، ولكلِّ خَطوةٍ حسابًا.

واعلَم رَحِمَك اللهُ أنّ المقصودَ مِن ذكر الموت ليس قطعَ الرَّجاء، ولا إلْباسَ النَّفْس ثوبَ الحُزن الذي يُقْعِدُها عن العمل، وإنّما المقصود كَسرُ سَوْرة الغَفْلة، وقَصْرُ الأمَل في الدُّنيا، وإيقاظُ القَلب لِيتزَوَّد قبل الرَّحيل. فذِكرُ الموت حياةٌ للقَلب الميّت، وسَوْقٌ للنَّفْس الشارِدة، وردٌّ للعَبد مِن فُضول الآمال إلى حقيقة الحال. ومَن أيقَنَ بِقُرب السَّفَر لم يُثقِل ظَهرَه بما لا يَصحَبُه، ومَن عَلِمَ أنّ المنزِل بَعيد أكثَرَ مِن الزاد، ومَن تَفَكّر في عواقِب الدُّنيا أَخَذَ الحِذْرَ، ومَن تيَقَّن طُول الطَّريق تأهَّب لِلسَّفَر.

يا أخي، إنّ العُمرَ أنفاسٌ معدودة، وءاجالٌ مَحدُودة، كلَّما مَضَى مِنهُ نَفَسٌ نَقَصَ جُزءٌ، وكلَّما انقَضَى يومٌ طُوِيَت مَرحَلة؛ والسِّنُون مَراحِل، والشُّهور فَراسِخ، والأيّام أميَال، والأنفاسُ خُطًى، والطاعاتُ رُؤوسُ أموال، والمعاصي قُطّاعُ الطَّريق، والرِّبحُ الجنّة، والخُسْرانُ النار. فلا تَغتَرّ بسلامة البدَن فكم صَحيحٍ أصبَحَ بَينَ أهْلِه ثُمّ أمسَى رَهِينَ لَحْدِه، ولا بِطُول الأمَل فكَم مُؤمّلٍ لِغَدٍ لَم يُدرِك بقيّةَ يَومِه.

(١) خاتمةٌ ووصيّةٌ منسوجةٌ مِن عباراتِ الحافظ ابن الجوزيّ مِن كُتبِه في الوَعظ والرِّقاق.

ومَن رأى الجنائزَ ولم يَعتَبِر، وسَمِعَ الناعيَ ولم يَزدجِر، فكأنّما خُصَّ الناسُ بالموتِ دُونَه، وليسَ كذلك.

وقد مَرَّ بك في هذا الكتاب مِن أخبار الأصفياءِ والأولياءِ، والعُبّاد والزُّهّاد، ما يُبيّن أنّ مَن أكثَر مِن ذِكرِ الله وطاعتِه في صِحّته، ءانَسَه ذِكرُه في شِدَّتِه، ومَن عَمَّر لَيلَه بمُناجاتِه، لم يَستَوحِش حين يَنفرِدُ في حُفرَتِه، ومَن صَدَقَ مع الله في أيام المُهلةِ، ثَبَّتَه الله حين تُزَلزَل الأقدام وتَضْطَرِب القُلوب.

فلا تَنتظِر بالمحاسبةِ مَساءَ العُمر، فإنّ مواسِمَ الحياة مُتعاقِبة، ولِكُلِّ مَوسمٍ عمَلُه؛ فالطُّفولة موسِمُ الزَّرع، والشَّباب موسمُ القُوّة والجِهاد، والكُهولة زمَنُ التثبُّت والاستدراك، والشَّيخُوخة نَذِيرُ الرَّحيل، والهَرَم ءاخِرُ مواطِن التَّدارُك. ومَن ضَيَّع أوّلَ عُمرِه فلا يُضيِّعْ ءاخِرَه، ومَن فاتَه فَضلُ القوّة فلا يَفُتْه صِدقُ الإنابة؛ إذْ لا يَبقَى في ءاخِر المواسِم إلّا استغفارٌ عمّا مضَى، واغتنامٌ لِمَا بَقِي، وتأهُّبٌ لِلرَّحيل. والعاقِل مَن جعَل انتِقالَه مِن سِنٍّ إلى سِنٍّ انتقالًا مِن الغَفلة إلى اليَقَظة، ومِن طُول الأمَل إلى صِدق العمَل.

يا مَن قطَعْتَ أكثرَ الطَّريق، وما أعدَدْتَ لِيَوم الوُصول، يا مَن كُلَّما زاد عُمرُه نَقَصَتْ بَقِيَّتُه، وكُلَّما اشتَدَّ حِرصُه قَرُبَ فِراقُه لِمَا حَرَص علَيه؛ ألا يَعتبِرُ المُقِيمُ بمَن رحَل؟! ألا يَندَم مَن عَلِمَ عَواقِبَ الكَسَل؟! ءاهٍ لِغَافلٍ كُلَّما جَدَّ الموتُ هزَل، ولعاقلٍ كُلَّما صَعِدَ العُمر نزَل! مَثِّل لِنَفْسِك صَرعة المَوت، وما عزَمْتَ أن تَفعَلَهُ حِينَئذٍ وقتَ الأسْر، فافعَلْه الآن في زمَن الإطلاق؛ فإنّ التوبةَ قَبلَ فَواتِ الأوانِ

مَقبُولة، والعمَل قَبلَ العَجزِ مَيسُور، والندَم اليومَ نافِع للعمَل، فأمّا إذا عايَنَ العَبدُ ما كان يُوعَد، فقد انقطَع العمل، ولم يَبْقَ إلا الحسرةُ على التَّفرِيط.

وانظُر كلَّ عمَلٍ كرِهتَ الموتَ لأَجلِه فاتْرُكْه، فإنْ أدَّيتَ ما وجبَ واجتنبْتَ ما حَرُمَ لَم يَضُرّك بعدَ ذلك متَى مِتَّ. واجعَل الدُّنيا كيَومٍ صُمْتَه عن شَهوَتِك، واجعَل فِطْرَك الموتَ، فكأنْ قد صِرتَ إليه. ولا تَقُل: إذا شِبْتُ تُبْتُ، وإذا فرَغتُ عَمِلتُ؛ فإنّ الأجَل لا يَعرِف شابًّا ولا شيخًا، والموتُ لا يَستأذِنُ صَحِيحًا ولا سَقِيمًا، والفراغُ أُمنيةٌ لا تكاد تُدرَك؛ فما انقضَى شُغلٌ إلّا خَلَفَه شُغلٌ، ولا قُضِيَتْ حاجةٌ إلّا وُلِدَت حاجاتٌ. وإنّما الحازِمُ مَن قطَع التَّسوِيف بالعَزم، وبادَر الفَوْتَ بالفِعل، وعَلِمَ أنّ قولَ النَّفْسِ في تأخيرِ الخيرِ بلا عُذرٍ: «غدًا» مِن أعظَم مَداخِل الشيطان عليها.

التَّوبةَ التَّوبةَ قبل أن تَصِلَ إليك النَّوبة، والإنابةَ الإنابةَ قبل أن يُغلَق باب الإجابة. انظُر في عَمَلِكَ قبل أن يُنشَر، وَزِنْه قبل أن يُوزَن عليكَ، وحاسِب نَفْسَك قبل أن تَقِفَ للحِساب. فإنْ وجَدتَ ذنبًا فامْحُه بندَمٍ صادِق، واستغفارٍ مُلازِم، وحسَنةٍ تَتبَع السيّئة، ورَدِّ مَظلمةٍ إلى أهلها. ولا تَستصغِر الذنبَ لِخَفائِه عن الناس؛ فإنّ اللهَ عالِمٌ بِكُلّ شيءٍ، ولا تَقُل: إنّه صَغِير، ولكن انظُر إلى عَظَمةِ مَن عَصَيْتَ. ولا تيْأَس لِكَثرة الإساءةِ؛ فإنّ مَن فَتَح لِلمُذنِبين بابَ التوبة أخبرَهُم بقَبُولِ التَّوبةِ عن عِبادِه.

وابْكِ على نَفْسِك قبل أن يُبكَى عليك، وتفَكَّر في سَهمٍ قد صُوِّب إليك؛ وإذا رأيتَ جِنازةً فاحسَبْها أنت، وإذا عايَنْتَ قبرًا فتوَهَّمْه قَبرَك، وعُدَّ بَقيّةَ الحياة رِبحًا.

وليس البكاءُ أن تَذرِفَ العينُ ثُمّ يُقِيمَ القلبُ على قَسوَتِه؛ إنّما البكاءُ النافعُ ما غسَل الخَطِيئةَ، وأَوْرَثَ الخَشيةَ، ودعا إلى التَّوبة، وحَمَل على الطاعة. فكَم مِن عينٍ باكيةٍ وقَلبُها مُصِرّ، فالعِبرة بصِدقِ القَلب، لا بِصُورةِ الحال.

يا ابن ءادَم، إنّك تَمُوت وَحدَك، وتَدخُل قَبرَك وَحدَك، وتُبعَثُ وَحدَك، وتُحاسَب وَحدَك، فلو أطاع أهلُك وإخوانُك وعَشِيرَتُك وجَيرانُك وأصحابُك وعصَيْتَ لم تَنفَعْك طاعَتُهم، ولو عَصَوا وثبَتَّ على الطاعةِ لَم تَضُرَّك مَعصِيَتُهم. فلا يَكُن هَمُّك نظَرَ الخَلْق إليك، ولكن انظُر كيفَ مَنزِلَتُك عند خالِقِك. أَصلِح سَرِيرتَك، فإنّها معلُومةٌ له، واحفَظ خَلَواتِك، فإنّها مِن أماراتِ صِدْقِك. واعلَم أنّ الذَّنْب في الخَلوةِ مِن أُصولِ الانتِكاس، والطاعة في الخَلوة مِن أُصولِ الثَّبات، ومَن أحسَنَ فيما بَينَه وبَينَ اللهِ كفاه الله ما بَينَه وبَينَ الناس.

ولا يَحمِلنَّك الخوفُ على القُنوط، فإنّ المؤمِن يَسِيرُ إلى حِسابِ اللهِ بَينَ خَوفٍ ورجاءٍ؛ يخاف ذَنْبَه فلا يَأمَن، ويَرجُو رَحمةَ رَبّه فلا يَيأَس. فإذَا ذكَرْتَ عِقابَه خِفْتَ، وإذا ذكَرْتَ رَحْمَتَه رَجَوْتَ، وإذَا رأيتَ عمَلَكَ استقْلَلْتَه، وإذا عرَفتَ كَرَمَه استَبْشَرْت. وليس حُسن الظنّ بالله تَرْكَ الفرائض والإقامةَ على المعاصي؛ فإنّ مَن رَجا شيئًا طَلَبَه، ومَن خاف شيئًا هَرَبَ منه. ولكنّ حُسن الظنّ أن تَعمَل وأنت تَرَى النجاة بِفَضْلِه، وتَتُوب وأنت تُوقِنُ بِسَعةِ عَفْوِه.

وكُونوا كما أمرَكُم الله؛ فاعمَلُوا بالكتاب، واتّبِعُوا السُّنّة، وأَقِيمُوا الفرائضَ، واحفَظُوا الجوارِح، وأكثِرُوا مِن الذِّكر وتلاوة القرءان، فإنّ القَلبَ يَصدَأ بالآثامِ، وجلاؤُه الاستغفارُ وتدبُّر الكتاب، والنَّفْسُ تَشرد وقَيدُها الطاعة. ولا يَزالُ العَبدُ

يَتعاهَدُ قَلبَه حتّى يَصِيرَ الخيرُ له عادة، والذِّكرُ له أَنِيسًا، والطاعةُ له راحة، فإذا هَجَمَ المرَضُ، وضَعُفَ البدَن، وثَقُلَ اللِّسانُ، جرَى القَلبُ على ما اعتادَه، وظَهَر عند الخاتِمة ما استَكَنَّ فيه طُول الحياة.

واعلَم أنّ القُبور منزلةٌ بين الدُّنيا والآخِرة، فاعمَل لِمِثل ذلك اليومِ، وتفَكَّر في طُول البقاء تحت أطباق الثَّرَى؛ حيث لا مالٌ يُؤْنِس، ولا مِلكٌ يَدفَع، ولا جاهٌ يَشفَع. هنالك ينَقطِعُ صخَبُ الدُّنيا، وتُطوَى ألقابها، فلا يَبقَى للعبدِ إلا عملٌ قدَّمه، ورَحمةٌ مِن رَبّه يَرجُوها. فطُوبَى لِمَن أَنِسَ في قَبرِه بما قدَّم مِن قُرءانٍ وذِكر، ووَجَد في ظُلمةِ اللَّحدِ نُورَ يَقِينه، وصَحِبَتْه في وَحدَتِه أعمالُه الصالحة.

ولا تَظُنَّن أنّ الاستعداد للموتِ اعتزالُ مصالح الحياةِ، أو تَضيِيعُ حُقوق الأهل والخَلْق، بل الاستعدادُ له أن تؤدِّيَ ما افترَض اللهُ عليك، وتَضَعَ كُلَّ حقٍّ في مَوضِعِه، وتَصدُق في مُعاملَتِك، وتُحسِنَ إلى والِدَيك وأَهلِك وجارِك، وتَكُفَّ أذاك عن المسلمِين، وتَستحِلَّ مَن ظَلَمْتَ، وتَقضِيَ ما استَطَعْت مِن الدُّيون، وتَكتُبَ ما يَجِب مِن الوصايا.

وإذَا نزَل بالعبد المرَضُ، فلَيعَلم أنّ ربّه لا يُتَّهَم في قَضائِه، فيَصبِرُ مِن غيرِ تضَجُّر، ويَرجُو مِن غير اغتِرار، ويَستغفِر مِن غيرِ قُنوط، ويُحسِنُ الظَّنَّ بِرَبّه، ويَجمَع قَلبَه على التوحيد. وعلى مَن حَضَرَه أن يَرفُقَ به، ويذكِّره اللهَ برِفْق، ويُلقِّنَه الشهادة مِن غير إلحاحٍ يُؤْذِيه، فقد قال النّبيُّ ﷺ: «**مَنْ كَانَ ءاخِرَ كَلَامِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ دَخَلَ الجَنَّةَ**». وليس الشأنُ أن تتحرّك بها الشَّفَتان فحَسبُ، بل أن يُواطِئَ اللِّسانَ قلبٌ عَرَفَ رَبَّه أنّه لا يُشبه شيئًا ولا يُشبهُهُ شيءٌ.

وما أحسَنَ حالَ مَن جَعَل «لا إله إلا الله» عُمدةَ حَياتِه قبلَ أن يَجعلَها كلمةَ مَماتِه، ثُمّ خُتِمَ له بِها؛ تِلكَ كلمةٌ عاشَ بِمَعناها، فهَنِئَ بالمَوتِ على لَفظِها. أمّا مَن استَعْبَدَتْه شَهْوَتُه المَقِيتة، وألهَتْهُ دُنياه الفانية، وجَعَل ذِكرَ الله نادِرًا على لِسانِه، وغَفَل عن طاعة رَبِّه، فكيفَ يَطلُب في ءاخِر لَحظةٍ ثمرةَ شجَرةٍ لم يَغرسْها؟!

فتأمَّلْ أحوالَ مَن تقدَّم ذِكرُهم؛ هذا ثابِتُ القَلب وإن ضَعُفَ جسَدُه، وهذا ناطقٌ بالحِكمة وقد ثَقُل لِسانُه، وهذا يُجدِّدُ التوبة، وهذا يَخشَى ذَنْبًا مع طُول طاعَتِه، ما جمَعَتْ بينَهم الأنساب ولا البُلدان، ولكن جَمَعَهُم صِدقُ المعامَلة، وطولُ الاستِعداد، ومَعرفةُ قَدْر الدنيا.

فيا مَن قرأتَ أخبارَهم، لا تَجعَل حظَّك منها التعجُّبَ مِن ثَباتِهم، ثُمّ تَعُود إلى أسباب الغَفْلة الّتي نَجَوا منها؛ ولا تَكْتَفِ بدَمعةٍ تَعقبُها غَفْلة، أو مَوعِظةٍ تَنقضِي بانقِضاء مَجلِسِها. قِفْ عِندَ كُلّ خبَرٍ وَقْفةَ مُحاسَبة، وقُلْ لِنَفْسك: بأَيّ شيءٍ كنتُ أُجِيبُ لو نَزَل بِي ما نَزَلَ بهم؟ وأيُّ عمَلٍ أرجوه إذا انقطعت الحِيَل؟ وأيُّ صاحبٍ يبقى لي إذا تفرّق الأهل والولد؟ ثم خذ من كلِّ سيرةٍ عملًا، ومن كلِّ موعظةٍ عزمًا، ومن كلِّ ساعةٍ زادًا.

ابدأ بإصلاحِكَ في الفَرائِض فهي رأسُ المال بعد الإيمان، ثُمّ الْزَم بابَ التَّوبة فهو بابُ النَّجاة، وأَكثِر مِن ذكر اللهِ ففِي ذِكرِه أُنسٌ مِن الوَحشة وذُخرٌ للباقية، واجعَل لك خَبِيئةً مِن عمَلٍ صالحٍ لا يَطّلِع عليها أحدٌ مِن الناس، وأَكثِر مِن الصلاة على النَّبِيّ ﷺ، وتلاوةِ القُرءان، وصدَقة السِّرّ، وبِرّ الوالِدَين، وصِلةِ الرَّحِم، والإحسانِ إلى الضُّعَفاء. واحفَظْ لِسانَك عن أعراضِ المسلمِين، وقَلبَك عن الحِقد، وعَينَك

عن الحرام، وبَطنَك من الشُّبهة والسُّحْت، فإنّ الجوارِحَ شُهودٌ عليك، وما تَحفَظُه اليومَ يَحفَظك غدًا بإذْن الله.

فالبدارَ البدارَ، والجِدَّ الجِدَّ، فإنّ الخَصمَ مُعِدّ، والقاصِمَ مُجِدّ، والعُمرَ لا يَعُود، والفائتَ لا يُسترَدّ، لا تُؤْثِر الفانيَ على الباقي، ولا تَبِع نَفِيسَ العُمر بلَذّة ساعة. ما أرخصَ ما يُباع به العُمر، وما أعظمَ الحَسرةَ عند ظُهور الخُسران. زَرعُ الحياة اليوم مُمكِن، وغدًا لا زَرْعَ ولا عمَل، وحِسابُ النَّفْس اليومَ يَسِير، وغدًا حسابٌ لا تَخفَى فيه خافِية. فاجعَل يَقظَتَك قبل مَوتِك، وغِناك قَبل فَقْرِك، وصِحَّتَك قبل سَقَمِك، وحَياتَك قبل مَوتِك.

اللّٰهُمَّ يا مُقَلِّب القُلوب ثَبِّت قُلوبَنا على دِينِك، ويا وليَّ المؤمنِين تولَّنا في الدُّنيا والآخِرة، واختِم لنا بخاتِمة السَّعادة، واجعَل خيرَ أعمالِنا خواتِيمَها، وخيرَ أيّامِنا يومَ نَلْقاك. اللّٰهُمَّ هَوِّن علَينا سكَرات المَوت، وءانِس وَحْشَتَنا في القُبور، وثَبِّتْنا بالقَول الثابت، واجعَل ءاخِر كلامِنا مِن الدُّنيا شهادةَ أن لّا إله إلا الله، وأنّ محمّدًا رسولُ الله، ولا تجعَل الدُّنيا أكبرَ همِّنا، ولا مَبلَغ عِلمِنا، ولا تُسلِّط علَينا مَن لا يَخافُك فينا ولا يَرحَمُنا.

اللّٰهُمَّ اغفِر لِمُصنّف هذا الكتاب، ولِمَن اختَصَره وقرأَه ونَشَرَه، وأهلِينا المؤمنِين ومَشايخِنا، واجعَل هذه الأخبار مُوقِظةً لِقُلوبنا مِن رَقْدة الغَفْلة، وسائِقةً لنا إلى سبيل التوبة والاستقامة، ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾.

وءاخِرُ دَعْوانا أنِ الحمدُ لله ربّ العالمين، وصلّى الله على سيّدنا محمّد، وعلى ءاله وصحبه وسلَّم تَسليمًا كثيرًا إلى يومِ الدِّين.

الفهرست

مقدّمة المختصر ١
منهج الاختصار ٤
ترجمة العلّامة الحافظ ابن الجوزيّ ٦
البابُ الأوَّلُ فِي بَيانِ فَضِيلَةِ العَقْلِ والنَّقْلِ ١٢
البابُ الثّانِي فِيما اتَّفَقَ عَلَيْهِ العَقْلُ والنَّقْلُ مِن أمرِ الدُّنْيا ١٣
البابُ الثّالِثُ فِي ذِكْرِ المُصابِ بِالمَحْبُوبِ مِن الأَهْلِ ١٦
علاج فَقْد المحبوب بثمانية أشياء ١٦
فَصْلٌ فِي فَضائِلِ الصَّبْرِ ١٨
من أخبار الصابِرين والراضِين ٢١
خطَر الجزَع والاعتراض ٢٢
البابُ الرّابِعُ فِي ذِكْرِ المُصِيباتِ المُخْتَصَّةِ بِذاتِ الإِنْسانِ ٢٢
التأهُّب في الصِّحّة والوَصِيّة في المرَض ٢٢
الصَّبر على المرَض يُذْهِب الخطايا ٢٤
الأدْوِية السَّبْعةَ عشَر ٢٦
ساعة الصَّبر وثمَرة العمَل السابق ٣٠
تَرْك الشَّكْوى ومبادَرة العمَل ٣١
مَكايِد الشيطان عند الموت وجوابها ٣٢
دَفْع الاعتراض على القدَر ٣٤
فِراق المحبُوبات وبلاء البدن ٣٧

حُسن الظنّ بالله عند الموت ٤٨
مَصِير أرواح المؤمنين ٤٠
التَّلقِين وحِراسة الإيمان ٤٠
سوء الخاتمة والخوف من الخِذلان ٤٢
البابُ الخامِسُ فِي ذِكْرِ مَنْ ثَبَتَ عِنْدَ المَوْتِ ٤٤
أقسام دَوافع الثَّبات ٤٤
مِن أخبار مَن قَبلنا ٤٦
- ذو القَرنَين ٤٦
- أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه ٤٦
- عمر بن الخطّاب رضي الله عنه ٤٧
- عثمان بن عفّانَ رضي الله عنه ٤٨
- عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه ٤٨
- الحسَن بن علي رضي الله عنهما ٤٨
- سالمٌ مولَى أبي حُذَيفة رضي الله عنه ٤٩
- عُمَيرُ بنُ أبِي وقّاصٍ رضي الله عنه ٥٠
- عامر بن فُهَيرة رضي الله عنه ٥٠
- بلال بن رَباح رضي الله عنه ٥٠
- عبد الله بن رَواحة رضي الله عنه ٥٠
- عُمَير بن الحُمام رضي الله عنه ٥٢
- معاذ بن جبَل رضي الله عنه ٥٢
- سَلمان الفارِسي رضي الله عنه ٥٣

- حُذيفة بن اليَمان رضي الله عنه ٥٤
- خُبَيب بنُ عَدِيّ رضي الله عنه ٥٤
- أبو الدَّرْداء رضي الله عنه ٥٥
- خالد بن الوليد رضي الله عنه ٥٦
- حَرام بن مِلْحان رضي الله عنه ٥٦
- أبو هريرة رضي الله عنه ٥٦
- أنس بن مالك رضي الله عنه ٥٦
- عَلْقَمة بن قَيس رحمه الله ٥٧
- الحسَن البصري رحمه الله ٥٧
- عبد الله بن المبارَك رحمه الله ٥٧
- الرَّبيع بن خُثَيم رحمه الله ٥٨
- ءادم بن أبي إياس رحمه الله ٥٨
- أحمد بن حنبل رحمه الله ٥٨
- أبو زُرعة الرازيّ رحمه الله ٥٩
- محمد بن أسلَمَ الطُّوسِيّ رحمه الله ٥٩
- أبو بكر الشبلي رحمه الله ٦٠
- أبو بكر بن حبيب رحمه الله ٦١
- عبد الوهّاب الأنْماطي رحمه الله ٦١
- أبو الوقتِ عبدُ الأوّل رحمه الله ٦١

خاتمة ووصيّة ٦٢